المشرق

خلود النفس

للاب لويس شرقواليو اليسوعي

لم يخلق الله في بدء الخليقة الانسان الاوّل على صورتهِ وشبههِ ليتلف هذا العمل المحكم الذي سُرَّ بهِ كأجمل واكمل مصنوعات يدهِ الالهيَّة وانَّما كان عزَّ وجلَّ يريد بقاء ذاك المركَّب العجيب فيصرف في جنَّة عدن ردحاً من الدهر في العزّ والهناء ريثما ينقلهُ الى دار الخلد والبقاء.

تلك كانت غاية الخالق في تكوينهِ لآدم ونسلهِ من بعدهِ. وكلٌّ يعرف كيف بلبل الانسان الاوَّل ذلك النظام الالهيّ وطمع في منصب كان يفوق طورهُ فتعدَّى امر صانعهِ وصار غرضاً لسهام الموت يقضي في الارض أيَّاماً قليلة ثمَّ لا يلبث ان يودّع الحياة او قُلْ بالحري ان حياتهُ هذه ليست غير موتٍ متواترٍ ينتهي بموت نهائيّ فتكون الولادة نفسها كما يقول العرب هي رسول الموت او كما قال ابو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب　　فكلُّكم يصير الى تَبابِ
لمن نبني ونحنُ الى ترابٍ　　نصيرُ كما خُلقنا من ترابِ
ألا يا موتُ لم أرَ منك بُدًّا　　أتيت فلا تجورُ ولا تحابي
كأنَّك قد هجمتَ على مشيبي　　كما هجمَ المشيبُ على شبابي

هذا صوت الطبيعة يرنُّ صداهُ في قلب كلِّ مخلوق وحسبُ الانسان أن يُلقي بنظرهِ حولهُ فيتحقَّق صحَّة هذا القول فيرى باختبارهِ اليوميّ انَّ كلَّ حيٍّ يموت وانَّ حياة المرء على الارض على قول الكتاب « كالظلّ والخبر الزائل او كالسفينة الجارية على الماء المتموّج التي بعد مرورها لا تجد اثرها او كطائرٍ يطير في الجوّ فلا يبقى دليل على مسيرهِ. يضرب الريح الخفيفة بقوادمهِ ويشقُّ الهواء بشدَّة سرعتهِ ورفرفة جناحيهِ يعبرُ

ثم لا تجد لمروره من علامة او كسهم يُرمى الى الهدف فيُخرَق به الهواء ولوقته يعود الى حاله حتى لا يُعرف ممرُّ السهم كذلك نحن ولدنا ثم اضمحللنا » (سفر الحكمة ٥ : ١٠—١٣)

✲

نعم لا مناص من الموت فان تلك حقيقة لا تحتاج الى برهان لوضوحها. ومع هذا يشعر الانسان في قلبه انهُ خُلق للحياة. لا يستطيع مهما شاء ان ينفي عنهُ ذلك الصوت الذي سمعهُ في الفردوس من فم الحيَّة الخادعة للأبوين الاوَّلين « لن تموتا ». فان ذلك الصوت يوافق ما كتبتهُ الطبيعة على صفحات ضميره بانهُ لن يموت وانَّ ذلك الانحلال الجاري على جسده ليس بكافٍ ليميتهُ كلهُ وانَّ قسماً منهُ وهو الاسمى والاجلّ سوف يقوى على الموت فيبقى حيّاً

وهذه الحقيقة قد نالت قوَّةً جديدة منذ حلَّ كلمة الله على الارض فشفى اسقام البشريَّة وابرأ عاهاتها وحمل على عاتقه اوصابها واوجاعها ووطَّد آمالها بقوله : « انا الحقّ والحياة. من يؤمن بي اعطيتهُ الحياة الابديَّة »

كلَّا لست اموت كلّي. فانَّ لنفسي حياةً لم يمسَّها شيء من احوال العالم وتقلُّباته. للموت ان يفتك بما حولها بل له ان ينقض اركان جسمي يوماً بعد يوم امَّا نفسي فتزدري بحملاته. اين ايَّام حداثتي الاولى وألعابي وتبسُّمات أُمي وكلُّ ما كان يبهج صباي ؟. اين شبابي ونشاطي في العمل ؟ اين كهوليتي وطلبي لشريف الامور وانصبابي على الاشغال وقيامي بالمناصب العالية ؟. مات صباي. مات شبابي. ماتت كهوليَّتي. فلم يبقَ لي من كلّ ذلك سوى الجسم الذي احسُّ اليوم بانحطاط قواهُ. لكنَّ بين هذه الخرابات كلّها اشعر بشيء لم يمت فيَّ. اشعر بالنفس التي كانت تحيي حداثتي فانَّها ليس فقط لم تمتْ بل اضافت الى قواها قوًى جديدة ربحتْها بالشغل والارتياض. اشعر بالنفس التي كانت تبهج شبابي فهي هي اليوم قائمة فوق انقاض الشباب مزدانة بمعارف وعلوم وفضائل لم تعهدها قبلًا. اشعر بالنفس التي كانت تسمو بي في كهوليَّتي الى المناصب وجليل المآثر. فهي هي اليوم تطلب ما هو ابقى واشرف وتحلّق بجناح آمالها الى ما وراء هذا الافق الضيّق الذي يحيط بها. واذا قربت من شفاهي كؤوس الموت وحسستُ بسكرات

المنون فاني مع حشرجة صدري وفي شدَّة نزاعي اسمع نغمة الرجاء والحياة التي تشنف آذاني لآخر مرَّة: لن تموت بل حياةً تحيا

*

ومن أغرب الامور انَّ تلك النغمة المنعشة وذلك غناء الظفر يتصاعد من انحاء المعمور وترددهُ اصوات كلّ الشعوب على مختلف اديانها وتباين نزعاتها وجلَبَتُهُ تُسمع اشدَّ وأجهر عند فراش المنون وعلى حافة القبور . واحسنُ ما قيل مؤخراً في رثاء شيخ كريم قول شاعر مُفلق تثبت اباتهُ هذه الحقيقة:

دفنوا حجابَ النفس في جوف الثرى والنفس حلَّت بالمحلّ الارفع
يا ذا اليقين غداً اراك فما بنى اهلُ الشكوكِ على سوى المتزعزع
قالوا المماتُ من الحياةِ وما دروا انَّ الحياةَ من الممات المُفجع
ما ذا تخيُّلُ شاعرٍ بل حكمةٌ نزلت على روحِ الحكيم الأروع
فالحبُّ ينبتُ بعد ما يبلى أما للحيّ بعد ذهابهِ من مرجع
ما ميتةُ الانسان الّا رقدةٌ فقيامةُ الموتى انتباهُ الهُجَّع
انَّ الخلود حقيقةٌ ازليَّةٌ نَفيُ النُّفاةِ لها هباءٌ زعزع
لم ينفها العلمُ الحديثُ وأُثبتت في مجمع العلم القديم المجمع

فنعم القول تسمعهُ لو شئتَ حيثما تحلُّ جثَّة ميتٍ في رمسها . وهذه الكنيسة المسيحيَّة تحمل موتاها الى «مراقدهم» كما تدعو المقابر وتلقي في وسط القبور اصوات الرجاء الوطيد وتتلو صلوات القيامة والحياة وتوقد اسرجة النور لنفي الظلمة وتجعل على ضريح ابنائها علامة الفوز والظفر وتصدُّ المؤمنين عن البكاء المفرط كمن ليس لهم رجاء

وليست كنيسة المسيح منفردةً في اعتقادها بخلود النفس فلو استفتيت البشريَّة في اربع خوافق العالم لاتَّفقت اصواتها بهذا المعتقد لا يشذُّ منها الّا اصوات بعض المخرقين الذين يكذّبون شهادة ضميرهم ويودُّون لو صحّ الامر ليتملَّصوا من تبعة آثامهم

فناشدتك الله لو كان كلّ شيء فينا يموت ما بال الامم تتفنن في رموزها التي تُشير كلها الى البقاء والخلود ؟ ما معنى اكرامها للموتى ؟ لمَ تلك القبور الجميلة وتلك المشاهد الانيقة المقامة عند جثثهم ؟ لمَ تلك الكتابات المزخرفة التي تعظِّم ذكرهم وتشيد بمآثرهم ؟ لمَ تلك الآنية الذهبيَّة التي كانوا يتَّخذونها ليودعوها رمادهم عند حرق اجسامهم ؟ لمَ

تلك الذبائح والقرابين التي كانوا يقدّمونها لتخميد ارواحهم لئلّا تعود الى الارض فتؤذي سكّانها؟ لمَ تلك الدراهم التي كان الرومان واليونان يجعلونها في افواه الموتى ليدفعوا بها حقّ عبورهم الى جنّات الخلد؟ أليست كلّ هذه العادات بيّنات لامعة تنبئ باعتقاد القدماء لحقيقة خلود النفس؟ أكان يمكنهم ان يقيموا الهيا كل لقياصرتهم او حكمائهم إن كانوا لم يسلّموا ببقاء نفوسهم بعد اضمحلال اجسادهم؟

ولم يكتفوا بهذه الرموز مع وضوحها بل ربّما اعلنوا صريحًا بايمانهم بخلود النفوس وبرجائهم في وجود حياة أخرى تعيش فيها تلك الارواح . ولو اردنا جمع هذه الشواهد المتعدّدة لدى كلّ الامم لأتّسع بنا المجال فنثبت منها امثلةً قليلة

واوّل ما يحضرنا من ذلك اعتقاد قدماء المصريين التي تنطق كلّ آثارهم من مدافن واهرام ونواويس واكفان عن بقاء النفس وخلودها (اطلب المشرق ١٠ : ١٤٢) حتى ان هيرودوت المؤرخ اليوناني (ك ٢ ف ٢٣) أنّهم سبقوا الكلّ في هذه العقيدة (١

وممّا يؤيد اعتقادهم بحياة أخرى عنايتهم بتحنيط الموتى لزعمهم بان النفس تحبّ مجاورة جسدها وترتاح الى مساكنتهِ ما دام محفوظًا في صورتهِ . وللمصريين كتاب يُدعى كتاب الموتى وكلهُ حافل باوصاف دار البقاء واحوال النفوس فيها . وكذلك كتابان آخران سبق للمشرق وصفهما يُعرفان بكتاب الابواب وكتاب ما يوجد في الطوات اي الجنّة . فترى نصوص هذه الكتب مرقومة على آثار الموتى ومدافنهم مؤذنةً بعقيدة الخلود في ارض النيل قبل المسيح بنيّف واربعة آلاف سنة . ومن تصاويرهم الشائعة صورة الاله اوزيريس يدين النفس بعد انفصالها من الجسد

ولم يكن اعتقاد البابليين مخالفًا لاعتقاد اهل مصر في خلود النفس يشهد على ذلك كتاب جليل وُجد في مخطوطات بابل المسماريّة يحتوي وصفًا موسّعًا لنزول الإلهة « اشتار » الى الجحيم ووصف حالة النفوس التي فيهِ

وكذلك قدماء الفرس فان كتابهم الديني « زند اوستا » لزرادشت مشترعهم يصف مقرّ الابرار بقولهِ : « انّ الموت يفتح الطريق للسماء مقام الابرار حيث النور والسعادة .

---

١) ودونك قولهُ الاصلي :

Πρῶτοι δὲ καὶ τόνδε τὸν λόγον Αἰγύπτιοι εἰσι οἱ εἴποντες ὡς ἀνθρώπου ψυχὴ ἀθάνατός ἐστι.

ليس هناك ظلمة البتّة ولا ريح ولا قرّ ولا حرّ ولا فساد ولا موت ولا شيطان مسيء ولا عدوّ قاهر » . امّا الاشرار فينفيهم عن هذا المقرّ الذي يملك فيه الاله هرمز « لانّ نفسهم تهبط الى الجحيم مكان الابالسة ومملكة اله الشرّ ارعان »

ومثلهم اهل الهند فانّ ديودورس الصقلي روى عنهم انهم كانوا يجلّون البراهمة لأنهم كانوا يعتبرونهم من نسل الآلهة لا يفوتهم شيء مماً يجري في الآخرة

واشهر من ذلك اكرام الصينيين لاجدادهم الموتى يضحّون لهم الضحايا ويقرّبون القرابين لاعتقادهم بخلود نفوسهم . ولو زرت مقابرهم وجدت فوقها كتابات تنطق بهذا المعتقد ومماً قرأناه آخرًا في رحلة بعض السيّاح انّ احد اعيان الصين توفي في باكين فنعاه اقاربهُ الى قناصل الفرنج بهذه الرسالة « نعي الى سعادتكم فلانًا الذي رحل رحلتهُ الكبيرة وركب متن التنّين ليصير ضيف السماوات »

هذا برضٌ من عدّ وقطرة من بحر ولو استقرينا تعاليم كلّ الشعوب والقبائل لوجدنا مثل هذا الاعتقاد راسخًا في قلوب اهلها يروونهُ على طرائق شتّى وظروف متباينة تتّفق في جوهر الامر . لكنّنا لا نستطيع ان نضرب الصفح عن الشعب الاسرائيليّ حامل الوحي ورافع منار التعاليم الالهيّة بين الامم فانّ بني اسرائيل نشروا لواء هذه الحقيقة كما فعلوا ببقيّة الحقائق الدينيّة التي ورثوها من آبائهم . اسمع أليعازر الكاهن الشيخ كيف يجيب مَن حرّضهُ على تجاوز سُنن آبائهِ لينجو من العذاب (٢ مك ٦ : ٢٦) : « اني ولو نجوتُ الان من نكال البشر لا افرّ من يدي القدير لا في الحياة ولا بعد الممات » . بل اسمع فتيةً صغارًا تلقّنوا ذلك منذ نعومة اظفارهم نريد الاخوة المكابيين السبعة الذين صبروا على الشدائد والآلام المرّة رجاء الفوز بافراح الآخرة . وهذا قول اصغرهم (٢ مك ٧ : ٣٠) : انّي لا أُطيع امر الملك وانّما أُطيع امر الشريعة . . . ولقد صبر اخوتنا على ألم ساعة ثمّ فازوا بحياة ابديّة وهم في عهد الله » . وكلّ يعرف ما صنع يهوذا المكابيّ (٢ مك ١٢ : ٤٠—٤٦) لمّا ارسل الى اورشليم الف درهم ليقدّم بها ذبيحةً عن اخوتهِ اليهود القتلى « لاعتبارهِ انّ الذين رقدوا بالتقوى قد أُدخر لهم ثوابٌ جميل وهو رأي مقدّس تقويّ ولهذا قدّم الكفّارة عن الموتى ليُحَلّوا من الخطيئة »

وليس عمل المكابيين خاصًا بهم فان رقيت سُلّم الاجيال متعقبًا آثار شعب الله

الى زمن الانبياء الى الملوك الى القضاة الى موسى الى ابراهيم والآباء الاوَّلين وجدتهم جميعاً على عقيدة واحدة بأنَّ النفس مخلَّدة لا تموت مع الجسد بل تصيب بعد انفصالها عن الجسد ثواباً او عقاباً كما استحقَّتهُ باعمالها. ليت شعري ايوجد كلام اصرح من قول سفر الجامعة الذي ادَّعى البعض بأن صاحبهُ لم يعتقد بالخلود (٣: ٢٧): «قلتُ في قلبي انَّ الصديق والمنافق كليهما يدينهما الله. هنا لكلّ غرضٍ وقتٌ لكن هناك على كلّ عملٍ حساباً» وقد ختم كتابهُ بقولهِ (١٢: ١٣—١٤): «اتَّقِ الله واحفظ وصاياه فانَّ هذا هو الانسان كلّهُ لأنَّ الله سيُحضر كلّ عملٍ ليدين على كلّ خفيّ خيرًا كان او شرًّا»

ومثل هذا كثير في سفر المزامير يُعلن بهِ داود النبيّ من اوَّل مزاميرهِ حيث بيَّن ما ينتظر في يوم الدين الصدّيقين والمنافقين من الثواب والعقاب

وقد شهد من قبلهِ أيوب بهذه الحقيقة بل بقيامة الاجساد ايضاً حيث قال (١٩: ٢٥—٢٧): «اني لعالم بأنَّ فاديَّ حيٌّ وسيقوم آخرًا على التراب وبعد ذلك تُلبَس هذه الاعضاء بجلدي ومن جسدي أُعاين الله الذي انا اعاينهُ بنفسي وعيناي ترياني لا غيري»

وان قيل ما بالُ موسى لم يذكر في كتبهِ خلود النفس افليس سكوتهُ دليلًا على انَّ تلك الحقيقة كانت مجهولةً عند العبرانيين. فالجواب على ذلك أنَّ موسى لم يُرد بكتابة اسفارهِ ان يعلمنا ما كان يعتقدهُ بنو اسرائيل او ما لم يعتقدوهُ. وانَّما كانت غايتهُ ان يدوّن تأريخ التكوين ثم يلخّص اخبار بني اسرائيل منذ اختار الله اجدادهم الى يوم خلَّصهم من رقّ عبوديَّة مصر ليدخلهم في ارض الميعاد ثمَّ يلقّنهم اوامر الله ووصاياهُ وسُنَنهُ. وقد اتَّسع موسى في قضيَّة التوحيد لعلمهِ بميل بني اسرائيل الى عبادة الاوثان امتثالًا بالشعوب المجاورة لهم. امَّا حقيقة خلود النفس فلم يجد موسى داعياً لبيانها اذ لم يكن احدٌ من بني اسرائيل ينكرها ولم تدعُهم اولئك الامم الى نكرانها وكلها متَّفقة في اثباتها كما سبق

وزد على ذلك انَّ في اسفار موسى اشارات عديدة الى اعتقاد بني اسرائيل بعقيدة بقاء النفوس. فقل لي رعاك الله ما معنى العبارة التي تكرَّرت في اسفار موسى عن موت الآباء حيث يقال: «انضمُّوا الى آبائهم» و «عادوا الى قومهم» و «رقدوا مع آبائهم» وان «حياتهم الحاضرة غربةٌ» وما شاكل ذلك من العبارات اليس معناها انَّ بعد هذه

الحياة الفانية حياة باقية . وان قيل ارادوا بذلك ان تُقبر اجسادهم بترب اجساد آبائهم اجبنا انَّ هـذا لا يصحّ في عدّة آيات . مثالهُ قول يعقوب (تك ٣٧ : ٣٥) لمّا اخبرهُ بنوهُ عن موت يوسف فظنَّ انَّ وحشًا ضاريًا افترسهُ فقال: «اني انزل الى ابني نائحًا الى الجحيم» فقولهُ هذا لا يصدق عن القبر وهو يظنّ ان الوحوش افترست جسد ابنـهِ فلا يبقى الَّا نفس ولدهِ التي كان يعلم انها لم تمت فاراد ان يجتمع بها في العالم الآخر

وقـد اتخذ السيد المسيح في انجيلهِ الطاهر (متّى ٢٢ : ٣١—٣٢) آية أُخرى من اسفار موسى (خر ٣ : ٦) ليقرّر الصدّوقيين بوجود غير هذه الحياة الزائلة قال عزّ من قائل : افما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : «انا إله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب» والله ليس اله اموات وانّما هو اله احياء

وكذلك قول الله لابراهيم (تك ١٥ : ١) انهُ «سيكون هو اجرهُ العظيم جدًّا» لا يصحُّ ان لم يُقل بحياة أُخرى لأنَّ سعادة ابراهيم في هذه الحياة لم تكن بكاملة وقد ابلاهُ الله ببلايا عديدة كالحرب والمجاعة كما ذكر الكتاب

هذه بعض دلائل تنفي الشكّ عن اعتقاد الشعب الاسرائيليّ منـذ اوَّل نشأتهِ بحياة الآخرة . ولا ننكر انَّ الله في العهـد العتيق اتّسع خصوصًا في وصف الخيرات المادّية والشرور الحاضرة لمن يحفظ وصاياه او يخالف اوامرهُ لانَّ بني اسرائيل مع اعتقادهم بخيرات الآخرة وشرورها كانوا ينقادون اكثر الى المنافع المحسوسة والاضرار القريبة . وقد صرف السيّد المسيح انظار تلاميذهِ عن كلّ ذلك ليوجّهها الى الباقيات وكل آية من آيات الانجيل الشريف شاهد لامع على هذه الحقيقة التي اتّضحت بعـد المسيح بأجلى بيان فعمّت كلّ اقطار المسكونة

وخلاصة القول انَّ عقيدة خلود النفس عريقة في قلب الانسان استمدّها من اصفى الموارد وأعذبها ترتقي في سلّم الاجيال بلا انقطاع الى اوَّل نشأة الامم ومـا كان كذلك ليس هو اختراعاً بشريًا بل حقيقة راهنة مقرَّرة استعارها ابن آدم من الوحي الاوَّل وشهد لهُ بصدقها سداد عقلهِ . وذلك وفقًا للمثل القائل : انَّ صوت الشعوب هو صوتُ الله

(لهُ بقيّة)

مدارس الزَّوْراء في عهد الخلفاء

لحضرة مكاتبنا الفاضل الاب انستاس الكرملي البغدادي (تتمة)

١٢ً المدرسة النظامية

سُميت النظاميَّة وهي امُّ مدارس العراق. الطائرة الشهرة في الآفاق. باسم مؤسسها نظام الملك الوزير الخطير. والعلّامة الكبير. وحليف العلماء المنقطع النظير. وهو الذي وُزّر لاثنين من السلاطين الساجوقية. اصحاب الاعمال الخيريَّة. لا بل واهل العز والجاه. وهما ألب ارسلان وملكشاه. وكان نظام الملك من اخص واخلص الاصدقاء للادباء الأعلام. ولاسيما كان صديق الشاعر الفلكي عُمر الخيام

شيَّد نظام الملك دعائم المدرسة ونظَّم رِحابها. سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) ومن بعد سنتين من تأسيسها فتحت لطلبة العلم ابوابها. وكان الغرض من انشائها النفعيّ. تعليم المذهب الشافعيّ

وقد ذكر ياقوت واحمد بن ابي طاهر البغدادي والخطيب البغدادي والسمعاني والعماد الكاتب وابن الدبيثي الواسطي وابن القطيفي والذهبيّ وابن النجار البغدادي وتقي الدين محمد بن رافع وابو بكر المارستاني وابن الساعاتي البغدادي وابن الفُرات وغيرهم اسماء مشاهير مدرسيها ومعلميها شيئاً كثيرًا. وعددًا وفيرًا. ومن نُبهاء مقرّنيها الغزّالي العلّامة. والبحر الحبر الفهامة. وشهرتهُ مع حسن سمعتهِ. تُغني عن ذكر ترجمته.

ومنهم ايضاً بهاء الدين بن شدَّاد وهو ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الاسدي قاضي حلب الفقيه الشافعي الذي نشأ عند اخوالهِ بني شدَّاد فنُسب اليهم. كان وُلد بالموصل الحدباء ثم انحدر في بغداد الزوراء واقام فيها سعيدًا في النظامية نحو ٤ سنين ثم عاد الى مسقط رأسهِ. وهو الذي كتب سيرة صلاح الدين الايوبي التي تُرجمت الى اللغات الافرنجية

وبجوار هذه المدرسة كانت المدرسة البهائيَّة التي مرَّ ذكرها. والبيمارستان التُتُشيّ والسوق التُتُشي. وهذان الاخيران من ابناء خمارتكين تاج الدولة تُتش احد ابناء السلطان الب ارسلان السلجوقي الذي توفي سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م)

وفي عهد ياقوت الحموي يعني بعد ان مضى على بناء هذه المدرسة مائة سنة كانت مبانيها ماثلةً في حالة حسنة . واذا انعمنا النظر في ما سطّره ياقوت من الفوائد الجزيلة المبثوثة في عدة موادّ من تآليفه يظهر جليًا انها كانت واقعةً بين باب الأَزَج وشاطئ دجلة . اي انهـا لم تكن بعيدة عن البصلية وهي محلة في طرف بغداد الجنوبيّ ومن الجانب الشرقيّ متصلة بباب كلواذى المعروف اليوم بالباب الشرقيّ . كما انها كانت واقعة على الطريق المؤدية من باب الدّرَج في السور المحيط بقصور الخلفاء الى باب البصلية

هذا وابن جُبير الشهير حضر الصلاة في النظامية في الجمعة الاولى من بعد قدومه الى بغداد وذلك سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) وقد وصف المدرسة وصف بناء جليل يزهو ضياؤها ويفوق بكثير سائر المدارس القديمة التي تزيّن تلك المدينة الزاهرة وكان عددها ثلاثين في شرقي بغداد فقط

وفي سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) يعني بعد بضع سنوات من وفاة نظام الملك أُصلحت هذه المدرسة بالتمام . ويذكر ابن جُبير ان في ايامه كانت المداخيل الواردة من الاملاك والاوقاف الراجعة الى هذه المدرسة تكفي كل الكفاية لجراية المعلمين والمدرسين وحفظ المباني في حالة حسنة بدون ان يخصص مبلغ خارق للعادة لإطعام فُقراء الطلبة

امّا سوق النظامية فكان احدى الطرق العامّة التي تمرّ بتلك المحلة وقد وصفهُ الواصفون بكونهِ واقعاً بجوار مشرعة سوق المدرسة النظامية . قال ياقوت في معجمه في مادة قُريّة : «هي محلة كبيرة جداً كالمدينة من الجانب الغربي من بغداد مقابل مَشرعة سوق المدرسة النظامية» . اه . وهذا كلام يُشعر بان المدرسة كانت ماثلة قريباً من ضفّة دجلـة

ولما زار ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧م) كانت النظامية شاخصة احسن الشخوص وقد وصفها بانها واقعة في وسط سوق الثلاثاء في شرقي بغداد في الطرف الاعلى بالنسبة الى الطرف الذي كانت تقوم فيه المدرسة المستنصريّة (راجع نقل كلامه بحرفه في ما اثبتناهُ في المستنصريّة) وهذا الشارع الطويل اي شارع سوق الثلاثاء كان يتعوّج ويتمعّج ويتحوّى ويتلوّى كأنهُ الحيّة ويحيط باسوار قصور الخلفاء ممتدًا من باب كلواذى في الجنوب (باب الشرقي اليوم) الى باب السلطان في الشمال الغربي حيث كان يقوم سوق الثلاثاء في اصل منشإهِ ومبدإهِ كما كان موجودًا في عهد ابن سَرَافيون

وبعد زيارة ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة كتب حمدُ الله المؤرخ الفارسي عن النظامية وهو لا يُشير اليها الّا من طرف خفي ويلقبها « بأم المدارس في بغداد » وهذا يدلُّ على ان دوَين نصف المائة الرابعة عشرة بعد المسيح كانت المدرسة ماثلة وان كانت الآن قد عَفَت آثارها واندرست كما يتّضح ذلك منذ نصف المائة الثامنة عشرة بما ان نيبُهر لم يجد في زمانهِ آثاراً للنظامية ليصفها كما وصف سائر الآثار الباقية في دار الخلفاء.

امّا اليوم فالمتواتر بين البغداديين ان بقايا النظامية هو مـا يرى من البيوت المرصوصة المتراكمة في « دَرب المنارة المقطومة » (اي المقطوعة) وهو الدَرب الذي يسميهِ البعض الآخر « بدرب محمود ابو الحس (اي بائع الحَس) في محلة باب الآغا ». وانما سُمّي بدرب المنارة المقطومة لان هناك قاعدة منارة اي مئذنة او بعض مئذنة ماثلة عند عِرقِ حائطٍ قد برز منها ما يقرب من ثلثيها اي ما يساوي مترين و ٧٩ سنتمترًا من محيطها والباقي منهـا داخل في الحائط الذي يستند اليها . والشاخص منها سمكاً اولًا تسعة سافاتٍ بارزة فوق سطح الارض وعلوّ كلّ عَرَقٍ تسعة سنتيمترات ونصف وفوق هذه المداميك الموضوعة على عرض الآجرَّة سافٌ آخر على طول الآجرَّة (اي ٢١ سنتيمترًا تقريباً) بارز عن موازاة الصفوف الاولى مـا يناهز ١٢ سنتيمترًا في الاصل . الّا ان ضيق الطريق هنا ومعظم عرضهِ ٣ امتـار قد اوجب الناس ان يتحككوا بهذا الافريز اذا تجمّعوا حتى ان البارز منهُ المتّجه نحو معبر الطريق قد تساوى نتوءُهُ مع بقية الصفوف السفلى . وامّا في الجانب الواحد فقـد بقي تقريباً على اصلهِ . وهذا البروز او النتوّ هو بمنزلة نطاق بيّن يُمنطق المداميك السفلى ويشرف عليهـا . وفوقَ هذا العرق النطاقيّ ٤٥ سافاً أُخرى . يعلوها نوع من القبَّة هي لها كالكمَّة يُختم بهـا البناء . وعدَّة سافات هذه الكمة سبعـة . وبالجملة فسمك المئذنة او المنارة او العلَم الموجود اليوم والبيّنة فوق الارض خمسة امتار وثمانون سنتيمترًا (انظر الصورة)

والمئذنة مائلة عن خطّ السمت ٢٠ سنتيمترًا وهي واقعة الآن بين دار حِسقَيل حاخام يعقوب لمن يأتي من جهـة جامع مرجان وبين دار اسحاق بن حِسقيل عزرا من الجهة الثانية وكلتا الدارين لليهود

اما عهد هذه المنارة فحديث بدون شك وبناؤها لا يتجاوز القرنين . والاسباب التي تدعونا الى هذا القول كثيرة . منها :

١ً نوع الطاباق (وهو الطابوق بلسان اهل بغداد اي الآجرّ) فانهُ لا يشبه ابدًا الآجرّ الذي كان يستعملهُ الاقدمون في دولة العباسيين كما في منارة سوق الغزل والسنّ ونحوهما. ولا يشبهُ ايضًا آجرّ القرنين اللذين تلوا العصر العباسي

٢ً وكذلك القول عن الجص الذي يجمع الطاباق بعضهُ الى بعض

٣ً راس المنارة المجموعة وقد قلنا انهُ يشبه القلنسوة او الكمّة مبني من جاس آجر المئذنة ومن جصّها وحجم آجرها وقطعهِ ولونهِ الخ. ولا يمكن ان نتصور انها بُنيت على هذه الصورة منذ عهد الخلفاء اذ لا شكل هندسي لها ومخالف لجميع اصول البناء. والّا فان كان بناء الكمّة حديث العهد بالنسبة الى المئذنة نفسها القديمة البناء فكيف امكن للمحدثين ان يجيئوا بآجرّ وجص وشيد ومواد لا تفترق بشيء عن مواد المئذنة في عهدها الاول. وكيف ضارع البناء الجديد البناء القديم من جهة الاعراض الخارجية ومنظر الكل حديث جديد

٤ً ليس في بناء هذه المئذنة ما يحملنا على الظن انها من عهد الاقدمين حتى ولا طرز بنائها فانهُ من ابسط ما يكون وليس فيهِ ادنى عناية. ولا نظام لهُ ولا ترتيب سائر المآذن على ما نشاهدهُ في سائر ابنية الخلفاء او ما كان منها من بعد عهدهم بقليل. فلا جرم انها حديثة الوضع هناك وقد أُقيمت بمنزلة «بناء تذكاري» يذكّر اهل المدينة بموضع مركز النظامية سابقًا ولقد بذل البعض مبلغًا طائلًا ليحصلوا على اذنٍ او رخصة من الحكومة او البلدية يستطيعون بهِ ان يُعفُّوا هذا الاثر فلم تُجز لهم ذلك. ويا اسفاه اذا حصل هؤلاء مع الزمان على تحقيق امنيتهم فانهم بذلك يُزيلون اثر هذه المدرسة وذكرها. واذا تمّ ذلك لا يعود احدٌ يعرف شيئًا من محلّها القديم. بما انهُ من الآن قد اضمحلّ كل اسم قديم كان معروفًا قبل قرنين او ثلاثة فكيف اذا زال آخر اثر منها فنتوسل الى الحكومة ان تتمسك بعدم تحقيق ما يتمنّى الطالبون حفظًا واكرامًا لذكر الاقدمين

واما سوق الثلاثاء الذي يكثر ذكرهُ في تاريخ بغداد فهو مجهول اليوم بالكليّة مع انهُ كان لهُ ذكر مشهور في السابق وكان عظيمًا جدًا إذ كان يمتد من اول الباب الشمالي عند سور المدينة فينزل الى سور قصور الخلفاء فيمرّ بسوق الرّيحانيين الى ان يتصل بصدر جامع القصر الكبير. امّا اليوم فقد أُقيمت ابنية كثيرة متضامّة على هذا الدرب وسوقهِ

حتى تنكَّرت صورة المدينة الاولى . ولم يبقَ امكان للاهتداء الى اصل رسم ذلك السوق ولا الى دربهِ ولا ولا ولا . والباقي منهُ يعرف بعدة اسماء بحسب موقعها او جوارها لبعض المعاهد والابنية او بموجب صاحبها وشاريها ومالكيها . من ذلك « محلة ثلاثة دكاكين . ودرب المنارة المقطومة . وباب الآغا . الى غير ذلك

امَّا نظام الملك مؤسسها فقد قال عنهُ ابن خلكان ما ملخصهُ :

« وكان نظام الملك من نواحي طوس وكان من اولاد الدهاقين واشتغل بالحديث والفقه ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليهِ بمدينة بلخ وكان يكتب لهُ فكان يصادرهُ في كل سنة فهرب منهُ وقصد داود بن ميخائيل السلجوقي والد السلطان ألب ارسلان فظهر لهُ منهُ النصح والمحبة فسلَّمهُ الى ولده الب ارسلان وقال لهُ : اتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ فيما يُشير بهِ . فلمَّا ملك الب ارسلان دبَّر امرهُ فاحسن التدبير وبقي في خدمتهِ عشر سنين فلمَّا مات الب ارسلان وازدحم اولادهُ على الملك وطَّد المملكة لولدهِ ملك شاه فصار الامر كلهُ لنظام الملك وليس للسلطان الَّا التخت والصيد . واقام على هذا عشرين سنة . . . وكان مجلسهُ عامرًا بالفقهاء والصوفية . . . وبنى المدارس والرُبُط والمساجد في البلاد وهو اول من انشأ المدارس فاقتدى بهِ الناس وشرع في عمارة مدرستهِ [النظامية] ببغداد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) وفي سنة ٤٥٩ جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ ابو اسحاق الشيرازي فلم يحضر فذكر الدرس ابو نصر بن الصباغ صاحب الشامل عشرين يوما ثم جلس الشيخ ابو اسحاق بعد [illegible] قوله :

بعد الثمانين ليس قوَّه قد ذهبت شرَّة الصُبُوه
كأنني والعصا بكفي موسى ولكن بلا نبوَّه » اه

وقد ذكرنا في صدر هذه المقالة سنة ولادتهِ ووفاتهِ

وممن يحق ذكرهُ هنا الشيخ ابو سعيد من شيوخ الصوفية وقد ذكرهُ الجامي في كتاب نفحات الانس فانهُ تولَّى دراسة المدرسة النظامية بعد أن عُني ببنائها (اطلب مجاني الادب ١ : ٨٧) . يعتبرهُ الصوفيون كل الاعتبار ويثنون عليهِ لورعهِ وآدابهِ - توفي نحو اواخر المائة الخامسة من الهجرة

مدارس النصارى

واما النصارى فكانوا مخيَّرين في ارسال اولادهم الى مدارس العرَب او الى ارسالهم الى مكاتبهم . واوَّل من حظَّر عليهم تعليمهم في مدارس المسلمين الخليفة المتوكل قال في اخبار فطاركة المشرق من كتاب المجدل لماري بن سليمان (ص ٧٩)

ما هــذا نصهُ . . . وأمر [المتوكل] بان لا تعلّم اولادهم (اي اولاد النصارى) في مكاتب العرب » اه

وكان لهم عدة مدارس منها :

١ مدرسة في الكرخ

وهي التي نشأ فيها ابو محفوظ معروف بن الفَيْرزان المشهور بالمعروف الكرخي نسبةً الى كرخ بغداد. كان اهلهُ نصارى وأسلم. (راجع كتاب خلاصة الذهب المسبوك. مختصر من سير الملوك تأليف عبد الرحمان سنبط قنيتو الاربلي (ص ١٤٥ من طبعة بيروت)

٢ مدرسة أُخرى في الكَرخ

قال ماري بن سليمان (ص ٧٦) « ولمَّا بنى المنصــور مدينتهُ (في الكرخ) وتزلها الناس هدم سبر يشوع (جاثليق النساطرة) تلك الابنية (أبنية مار فثيون) لاجل من تغلّب عليها ولم يتعرَّض للهيكل والمذبح . وجدَّد بنــاء بيت الاشهاد والاروقة ونصب اسكولا (مدرسةً) وجمع المتعلّمين وكان عليّ وعيسى ابنــا داود يقومان بامرهم واقام الجاثليق فيــهِ ورسم ان يدفع من دخلهِ الى رهبان عُمر صَرصَر وهو المعروف بعمر صليبا وهم الناقلة من هذا الدير اربعة دنانير في كل شهر » اه كلامهُ

٣ اسكول مَرماي

هو مدرسة خرج منها اعظم مشاهير علماء النصارى ولم يكن في نفس بغداد بل كان قريباً منها. واكابر البغاددة كانوا يرسلون اليــهِ اولادهم. قال ابن ابي اصيبعة في متَّى بن يونان (١ : ٢٣٥) « كان ابو بشر متَّى بن يونان من اهل دير قُني ممَّن نشأ في اسكول مرماري اه . وقال ياقوت : « دير قُنَّى بضم اوَّلهِ وتشديد ثانيــهِ مقصور (١ ويعرف بدير مرماري السليح (٢ . قال الشابُشتي : وهو على ١٦ فرسخًا من بغــداد منحدرًا بين النعمانيَّة وهو في الجانب الشرقي معدود في اعمال النهروان . » اه

١) والنصارى من العرب يضبطونهُ بضم القاف وكسر النون وفي الآخر ياء ساكنة ومنهم من يُقحم واوًا بين القاف والنون ويقول قُوني. ويزعمون انهــا امرأة بنت هذا الدير وكتبتهُ من مالها الخاص واوقفتهُ للبيعة فسُمّي باسمها

٢) وفي الاصل: السليخ بخاء معجمة وهو غلط

وهناك عدة مدارس ومداريس واسكولات لا يمكن الحصول على اسمائها فقد كتب ماري بن سليمان (ص ١١٢) عن الجاثليق يوانيس انهُ «تجوَّز بأخذ الرشى على الاسياميذات جهرًا واخراب البيع وتعطيل الاسكولات (التي في بغداد) اه . وهذا كلام يستشف من ورائهِ انهُ كان في بغداد عدة مدارس او اسكولات كما انهُ كان فيها عدة بيع

وقال المذكور في (ص ٨٥) عن الجاثليق يوحنا بن عيسى انهُ «تربَّى في قطيعة النصارى ببغداد» . وقطيعة النصارى هذه كانت قريبة من درب القراطيس وكان فيها ايضًا نصارى اذ قال بُعيد ذلك: «وتعصَّب على يوحنَّا قومٌ من قطيعة النصارى ودرب القراطيس كانوا يعرفون منشأهُ وتربّي بينهم» اه . ولما كان لا بُدَّ لكل محلَّة من كنيسة ومدرسة كان من الواضح وجود مثل ذلك في تلك المحلة

هذا الذي تمكَّنت يدنا الى الوصول اليهِ من اسماء المدارس مع تأكُّدنا انا لم نذكر الَّا شيئًا زهيدًا منها ولهذا فان كان بين القرَّاء من يستطيع ان يهدينا الى غير ما ذكرناهُ فانهُ يستحق الأجر ونباهة الذكر والله المكافئ المُثيب . وكفى بهِ محسنًا

نعيم الآخرة

مقالة لايليًا مطران نصيبين

عُني بنشرها الاب لويس معلوف اليسوعي

توطئة

في العشر الاوَّل من الشهر الحالي تحتفل الكنيسة بعيد صعود الربّ الى السماء وهي تنتهز الفرصة لتوجه افكار ابنائها الى افراح الجنَّة فتوطّد رجاءهم في الثواب الذي ينتظرهم في دار البقاء اذا ما جاهدوا مع الرسول الجهاد الطيّب فغلبوا الشهوات وفعلوا الصالحات . وقد رأينا نحن ايضًا هذا الوقت موافقًا لنشر مقالة في نعيم الآخرة وذلك اثر قديم وقفنا عليهِ في احد مخطوطات اوكسفرد العربيَّة وهو لكاتب نسطوري شهير ايليًا مطران نصيبين نشرنا لهُ سابقًا (في المشرق ٦ : ١١١) رسالةً في وحدانيَّة الخالق وتثليث اقانيمهِ كنَّا اقتطفناها من المجموع ولا حاجة لوصف هذا المخطوط

الذي افضنا في تعريفهِ وفي بيان محتوياتهِ في عدد المشرق المنوَّه بهِ. والمقالة التي نثبتها هنا هي الثانية عشرة من المقالات التي يشتمل عليها الكتاب. امَّا صاحبها فنحيل القرَّاء الى ما دوَّنهُ المشرق عن ترجمتهِ وتآليفه في سنتهِ الخامسة (ص ٢٢٧-٢٤١) وفي ذلك الكفاية لتعريف سموّ فضلهِ وسعة علمهِ

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد

المقالة الثالثة عشرة

من قول ايليَّا مطران نصيبين في نعيم الآخرة

قال لمَّا سألوهُ عن نعيم دار الآخرة الدائم (أهو اكل وشرب) فاجاب قائلًا:

ليس ذلك النعيم اكلًا ولا شربًا بل سرورًا ومجدًا لا يُنطق بهِ ولذَّة لا توصف تتَّحد بالنفس والعقل وتوصلها الى نظر مجد الله والعيشة الملائكيَّة بلا تعب ولا ألم ولا تغيير ولا عرض ولا استحالة في نوع بالجملة من كل الانواع كما قال الانجيل المقدَّس في القيامة: تصير الابرار كمثل ملائكة الله الذين في السماء لانهم بنو الله وبنو القيامة

فان قال قائل: ان نعيم الآخرة اكلٌ وشربٌ. قلنا لهُ: ليست هذه اللذَّة اصليَّة في ذاتها ولا خيرًا محضًا في طبعها بل انما هي دفع عرَض من عوارض الدنيا مثل لذَّة الأَمن عند الخوف ولذَّة الراحة عند التعب ولذة الهدؤ والسكون عند القلق والانزعاج فتكون تهدّي ما قبلها وتسكّنهُ الى وقت ما. هكذا يكون وجود لذة الطعام عند الجوع فانَّ الانسان اذا اخذ كفوءهُ من الطعام هدأ عنهُ الجوع الى وقت وليس هو خيرًا في طبعهِ اعني الطعام بل انما صار خيرًا عند ألم الجوع فان زاد عن الحدّ أتخم وضرَّ لأنهُ لو كان خيرًا في طبعهِ لم يكن يضرّ عند الاكثار منهُ بل كان يزداد نفعًا فاضلًا. كذلك لذَّة الشرب عند ألم العطش فاذا روي الانسان انقطع عنهُ ألم العطش ووجد راحة الى وقت ما وليس هذا الآخر خيرًا في طبعهِ بل انما هو صار خيرًا عند ألم العطش لا غير ذلك كما قال القديس غريغوريوس اخو الكبير باسيليوس فاذا زاد منهُ أفسد معدتهُ وأحرف مزاجهُ وان اختنق في مياهٍ كان ذلك سبب موتهِ فلو كان ذلك خيرًا محضًا لم يكن يهلك بها ولا يتضرَّر منها عند كثرتها فمقدار اللذة في هؤلاء الانواع كمقدار ما تحدثهُ عوارض الزمان من الالم فيسكن ذلك الالم الحادث لا غير

فان قال قائل : ان نعيم الآخرة اكلٌ وشربٌ أجبناهُ فأيُّ فضل لهما على عوارض هذا الدهر الكثيرة الأتعاب والاعراض ولا خير في لذة يوجبها الم ضروري حتى يوجب سلوها كمثل مرض تريد مداواته حتى يهدأ ألمهُ

فان مارى احد في ذلك وقال : ان الله قادر ان يوصل هذه اللذة بغير ألم قلنا لـهُ : ان الانسان لا يحس بلذة الطعام من غير جوع ولا لذَّة الأمن الَّا من بعد جزع وخوف ولا لذة اللباس والتدثُّر الَّا عند ألم البرد ولا لذة الراحة الَّا عند التعب ولا لذة الهدوء الَّا عند القلق كما قلنا اوَّلًا بل لله الاقتدار بالحق والأفضل لن يبطل ألمها من الجسم بعد القيامة لانها غرضيَّة ولذة خسيسة مناسبة للبهائم الغير عقليَّة كما يبطل شهوة التناسل لكي تبقى حياته مع الله ابدية مناسبة الملائكة الروحانية العقلية العلوية بلذة تنال الروح لا يُنطَق بها ويبارك الله دائمًا ويقدسه شبيهًا بالملائكة وكافة الطغمات النورانية وينسى كل الملاذّ الجسديَّة الكثيرة الاوصاب والآلام

فاخبرنا ايها الانسان ايما الأفضل العين الصحيحة النظر بالدوام التي لا ينالها ألم او العين التي تتَّجع كل حين وتحتاج الى الاكحال والشيافات (الادوية) لكي يهدي الضربات الحادثة لها عرضيًا . وانَّما اهنأ عيش الذي جسمهُ سالمٌ معافًى من سائر الأوصاب او من يعرض لهُ امراض مستقمة او اورام صعبة مؤلمة ويحتاج للادوية والى المراهم على الاعصاب ليسكّن مادَّة المه لعلَّهُ يصح كما كان اوَّلًا ويحسد المعافى المستريح من الآلام الذي هو مكابدها . فمن البيان ان الذي كفاهُ الله هذه الآلام بأسرها وما يشابهها وحملها عنهُ هو الممتدح اكثر من الذي تعرض لهُ ويتألم منها ويحتاج يستعمل ما يهدئها وهكذا الذين بعد القيامة كفاهم الله تبارك اسمهُ الم هذه الاعراض وحمل عنهم ثقل الجسم بامرهِ وجعلهم يشهدون في حياة فاضلة ولذة اشرف واعلى تبنع التي هي خير في طبعها فكلما تزايدت عظمت كراماتهم على قدر رتب اعمالهم الفاضلة لا كمثل تلك اللذة الجسديَّة المستحيلة الزمنية التي كلما اكثرتَ منها ضرَّتك وربما قتلتك فامَّا هذه الذي قد استحق ان تتفاضل عليهِ من الله سبحانهُ وتعالى كصفو اعمالهِ كلما ازدادت مجدًا وكرامةً وبهاء وفرحًا ومسرة لا ينالها حزن ولا كآبة غريبة من الاعراض والآفات

فان ظن احد ان اللذة المستأنفة هي الاكل والشرب وقد جعل اللذات الجسديَّة اشرف من لذة العقول الروحانية فهـذا لا يعرف مقدار مواعيد الله بالجملة الكليَّة ولم

يحل عقلهُ الّا لاشياء جسمانية كما يلائم افكار قلبهِ الدنية والدنيوية وهذا غاية الغلط لا محالة ان يكون شبه البهائم الغير عقلية افضل من شبه الملائكة السماوية وفي هذا الذي ذكرناهُ كفاية بالغة لمن لهُ عقل زاهد لطيف وتأمل حاذق شريف ان لا يميل للباطل ولا يصغي لقول معيب جاهل · ولربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح المجد والقدرة الى الابد والى ابد الابدين امين والشكر لله دائمًا ابدًا سرمديًا

سلامة النيّة

للاب لويس فؤاد اليسوعي

قرأنا في مجلة انكليزية خبرًا عجيبًا روتهُ السيدة هربرت عن احد الآباء اليسوعيين المرسلين اسمهُ دوبوي (Dupuy) جرى لهُ سنة ١٨٧٠ في تريشينوبولي احدى عواصم الهند من اعمال مدراس · وكان المرسل المذكور قد خصّ نفسهُ بدعوة اهل تلك البلاد الى الدين المسيحيّ وما لبث ان اكتسب ثقتهم واسر قلوبهم بمحبّتهِ وهدى منهم كثيرين الى الدين الحق

ومن مبرّاتهِ انهُ كان يزور مرَّة في الاسبوع سجن المدينة حيث حُبس بعض الكاثوليك الارلنديين لجنايات اتوها فكان يتولّى تعليمهم ويهتمّ بشؤونهم الروحيَّة ويوزّع عليهم الأسرار المحيية ولا يدعهم حتى ينهض هممهم ويطيّب نفوسهم فيخرج من بينهم وألسنتهم طافحة بشكرهِ

ففي بعض الأيام المعهودة قصد الاب دوبوي أولئك البائسين وجعل كمألوف عادتهِ يقضي بينهم الساعات لينير بها عقولهم بالارشادات التقويَّة ويثبت في قلوبهم المقاصد الصالحة لتحسين سلوكهم وكان الاب نال من حرس السجن ان يفردوا لهُ للقيام بمهنتهِ قاعة فسيحة يجمع فيها اهل ملّتهِ فيعتزلون عن بقيَّة السجناء ما دام المرسل معهم · فبينما كان يستقري يومًا صفوفهم ويسأل كلًّا منهم عن احوالهِ اذ وجد بينهم سجينًا لم يعرفهُ فتحقّق في سؤالهِ فاذا هو وثنيّ من بعض قبائل الهنود كان أُلقي عليهِ القبض لجريمة ارتكبها فزُجّ في السجن ريثما يصدر الحكم في حقّهِ · وكان المذكور يعرف شيئًا من

الانكليزيّة فلمّا رأى الاب دوبوي يدعو الكاثوليك اندسَّ بينهم وتبعهم الى حيث مضوا ليصغي الى تعاليم مرشدهم فتأثّر من اقواله. أما المرسل فاخذهُ الاندهال من امره كيف اختلط بالكاثوليك وهو ليس منهم فصرفهُ الى السجن العمومي بلطف لكنَّ الهندي طلب اليهِ بالحاح ان يدعهُ يحضر تلك الارشادات فينتفع منها فغضَّ الاب النظر عنهُ

ثم داوم موتوسومي فعلهُ في الاجتماعات التالية وتسرَّب في جملة المسترشدين من الكاثوليك الى أن تهيّز الفرصة يوماً فانفرد بالمرسل والتمس منهُ ان يصبَّ عليهِ الماء الماحي للخطايا يريد بذلك العماد. فردَّهُ الاب خائباً غير مرَّة خوفاً منهُ بان تكون طلبتهُ عن غاية بشريَّة. فعاد الهنديّ الى ملتمسهِ والدمع يترقرق في مآقيهِ. فاراد الاب ان يقف على حسن طويَّتهِ فقال لهُ: وكيف أُنصّرك وعلى صدرك سمة الوثنيَّة

وكان موتوسومي حاملًا صورة خطّاف وهي شارة المتعبّدين لصنم الهنود كريشنا. فعند سمعهِ هذا الكلام نزع الصنم عن صدرهِ ووطئهُ برجلهِ قائلًا: « لن أدين مذ الآن بغير دين المسيح ابن الله » ثم خرَّ على قدمي المرسل وهو يستحلفهُ أن يصبغهُ بالماء الماحي للخطايا

فتعجَّب الاب من فعلهِ لكنهُ لم يشأ ان يلبّي دعوتهُ قبل ان يتحقّق خلوص نيّتهِ وثباتهُ على عزمهِ فوعدهُ انهُ لن يتأخر عن الإجابة الى ملتمسهِ إن هو أتقن معرفة اصول الدين المسيحيّ وتعلَّم الصلوات عن ظاهر قلبهِ. فكان الهنديّ في وقت الفراغ يسرع الى احد رفقتهِ السجناء الكاثوليك فيأخذ عنهُ الصلوات ويتلقّن ما يجهلهُ من امور النصرانيَّة حتى اصبح بعد اسابيع قليلة لا يفوتهُ شيء من مبادئ الدين الكاثوليكي. ولمَّا فحصهُ الاب دوبوي وجدهُ اهلًا بنعمة المعموديَّة مستعدًا لها الاستعداد التام لا يبغي شيئاً كبغيتهِ لسرّ الخلاص

وكانت الحكومة في اثناء ذلك عقدت جلسة خصوصيَّة لتقضي في امر موتوسومي وتحكم عليهِ حكماً نهائيًا وكانت وقعت عليهِ شبهة القتل لبعض مواطنيهِ فسيق الى القضاة وسُئل أَقرَّ بذنبهِ فكان جوابهُ انهُ « هو القاتل ويرضى بما يُحكم عليهِ من العقاب تكفيرًا عن اثمهِ »

فاخذ العجب قضاتهُ من سرعة اقرارهِ وظنّوا انهُ يقول ذلك امَّا لاختلاطٍ حدث لهُ في عقلهِ وامَّا خداعاً ليخفف عن نفسهِ تبعة الجريمة. فكرَّروا عليهِ السؤال مرارًا

وكان هو لا يجيب بغير قولهِ السابق وانهُ يريد تقدمة بالكفارة عن ذنبهِ للآلهة · فاتفق القضاة على ان يحكموا عليهِ بالسجن المؤبد وأُعيد الى حبسهِ

امَّا الاب دوبري فوقع في حيرة عظيمة لا يدري ما يصنع مع الهنديّ وكان وعد متولّي ادارة السجن بانهُ يقصر عنايتهُ بالكاثوليك فقط ولا يتعدى طورهُ الى غيرهم ليهديهم الى دينهِ · فخاف اذا عمّد موتوسومي ان يوغر صدر المدير فيمتعض من فعلهِ ويصدّهُ عن زيارة السجناء الكاثوليك · لكنهُ كان يرى ايضاً في ثبات الهندي والحاحهِ بطلب العماد فرضاً لازباً لا يمكنهُ ان يتغاضى عن اتمامهِ دون ان يقصر عن واجباتهِ

فالتجأ الى الصلاة لعلهُ يهتدي الى سواء السبيل فالهمهُ الله ان يذهب الى دار مدير السجن فيعرض عليهِ الامر ويطلب منهُ الرخصة ليعمّد ذلك المسكين · فلمَّا طرق سَمع المدير حديث الاب دوبري استشاط غيظاً وظنَّ انها مكيدة من المرسل الذي تجاوز اوامرهُ وجعل يدعو الى دينهِ السجناء الوثنيين · فأبى ان يمنحهُ الرخصة المطلوبة وردّهُ خائباً بقولهِ :

« يا حضرة الاب اياك ان تنخدع بكلام ذلك الهندي فانهُ من شرّ العباد وقد ثبتت عليهِ جريمة القتل وعندي انهُ لم يطلب التنصُّر الّا ليُفلت من العقاب الذي نالهُ بكل عدل وصواب »

قال هذا واطبق الاب واقفل بابهُ دونهُ ثمَّ كتب الى حرَس السجن بان يشدّدوا على موتوسومي ويوثقوهُ بالقيود ولا يدعوا الاب دوبري يقترب منهُ · فاسرع الحرس الى الامتثال لامر المدير وكبّلوهُ بالحديد ثم افرزوهُ عن بقيّة السجناء وجعلوهُ في غرفة مظلمة واوسعوهُ ضرباً وشتماً · امَّا الهندي فكان يحتمل كلّ ذلك بصبر عجيب لا يفوه ببنت شفة

ثمَّ عاد المرسل بعد ايام الى زيارة السجن فاعلمهُ بعض الكاثوليك بما حصل لموتوسومي من المصادرة فاشمأزَّ الاب من تلك المعاملة التي كان هو سببها على غير علمهِ فلم يبقَ لهُ الّا ان يلقي بمقاليد امرهِ عليهِ تعالى ويتوسَّل الى الله بان ينجي تلك النفس من ضيقها ويفرج كربتها

وكان بين حرَّاس السجن رجلٌ ارلندي ذو دين اسمهُ بتريك فدعاهُ الاب دوبري سرًّا واوصاهُ بالهندي كي يشدّد عزيمتهُ ويقوي قلبهُ في محنتهِ ريثما يسهل الله امورهُ

وخوّله السلطة ليمنحهُ العماد ان رآه ثابتاً في نيّتهِ مصمّماً على طلب ذلك السرّ . فوعدهُ الحارس بأنّهُ ينجز اوامرهُ ويقوم بخدمة موتوسومي ما امكنهُ

امّا السجين المسكين فلمّا رأى نفسهُ متزويًا في سربٍ مظلم لا انيس لهُ ولا جليس دهمتهُ الهواجس وساورتهُ الهموم فانحطّت قواهُ وبرى الحزن عظمهُ حتى بانت عليهِ نهكة المرض وصار طريح الفراش . فاتاهُ الحارس بتريك واستنفد وسعهُ في تثبيت جنانهِ الّا انهُ لم يستطع ان يخمد جزعهُ ويسند عزيمتهُ . وكان الهندي لا يزال يلحّ عليهِ بان يدعو لهُ الاب دوبوي ليقوم بوعدهِ ويخبرهُ بالماء الماحي للخطايا . فأخبرهُ بتريك بأنّ المرسل فوّض اليهِ السلطة بتنصيرهِ . فلم يرضَ الّا بأن يستدعوا لهُ الاب دوبوي

وكان المرض يتفاقم يوماً بعد يوم على الهندي والعلّة تدنفهُ حتى أشعر طبيب السجن بأنّ موتهُ قريب وامر بنقلهِ الى مستشفى السجن . فخاف بتريك ان يقضي ذلك المسكين نحبهُ دون ان يحظى بمطلوبهِ فكتب الى الاب دوبوي رسالة يعلمهُ بحالة العليل وبتصميمهِ على استدعائهِ اليهِ دون آخر

فقام المرسل من ساعتهِ وتوجّه الى بيت مدير السجن متوكلًا على الله وملتمساً شفاعة البتول معزّية الحزانى . فطرق الباب ودخل الديوان وكان المدير جالساً يطالع تقريرات حرّاس السجن وفي جملتها شهادة الطبيب في حالة الهنديّ الخطرة . فقال الاب :

— أبلغك سيّدي أنّ الهندي موتوسومي على آخر رمق ؟

— قد بلغني الامر

— هي التشديدات التي جرت في حقّهِ قد نهكت قواه واثقلت مرضهُ حتى اشرف على الموت

— وماذا يمكننا ان نفعل ان أيس الاطبّاء من شفائهِ ؟

— سيّدي لا يزال هذا المسكين يلحّ على الحرّاس بأن يستدعوني لأعمّدهُ وامنحهُ سرّ العماد . الّا ان الحرّاس قياماً بأمرك لم يجيبوا الى دعوتهِ . وهاهوذا يموت ويطالبك الله بنفس هذا المسكين كما انّ الحكومة البريطانيّة تجعل على عاتقك تبعة حرمانهِ من التنصّر وجنابك تعلم انّ الحكومة تترك الحريّة التامّة لكل رجلٍ من رعاياها ان يدين بايّ دين شاء

فوجم المدير مطرقاً عند سماعهِ هذا الكلام وخشي من ضررٍ يلحق بهِ إن بلغ

الاب دوبوي الامر الى رؤسائهِ ثمَّ رفع رأسهُ بعد ساعة وقال:

دونك القرطاس والقلم فاكتب لي ما قدَّمتهُ من الادلَّة في رسالةٍ انفذها اليوم الى حاكم مدراس فعساك تبلغ بذلك ما تحبّ ويصيب السجين حاجتهُ

فبرقت اسرَّة الاب دوبوي وشكر المدير ثمَّ تناول الورق وسطَّر عليهِ رسالتهُ ودفعها الى العامل فاصحبها هذا بامرٍ منهُ وارسلها الى العاصمة طالباً الجواب السريع

☆

كتب الله للمرسل الفاضل النجاح. فلمَّا كان اليوم الثالث وردتهُ رسالة برقيَّة من مدراس يسمح لهُ فيها الحاكم بمراد الهنديّ. فاقبل الاب دوبوي مسرعاً الى السجن حتَّى موتوسومي بنيل مرغوبهِ

وكان المسكين يتململ على فراشهِ ويخاف ان يموت قبل ان يفوز بالماء الماحي للخطايا. فلمَّا بلغهُ ذلك الخبر البهيج سكن جأشهُ وانكشف غمُّهُ. وكانت البشرى انتشرت بين السجناء فما كان الَّا كلمح البصر حتى التأموا في مستشفى السجن حول الاخشاب الغليظة التي كان الهندي مضَّجعاً عليها يقاسي مُمضّ الاوجاع. وكانوا كلهم عيونًا وآذانًا ليروا ذلك البئيس ويصغوا الى حركاتهِ وسكناتهِ بعد ان كانوا عهدوا منهُ مدَّة اقامتهِ بينهم رجلًا هادئاً ورعاً لطيفاً

فقال لهُ الاب دوبوي: لقد اتيناك ولدي تلبيةً لدعوتك بالسرّ الذي طالما تاقت اليهِ نفسك فتأهَّب لقبولهِ واشكر الله على هذه النعمة السابغة

اجاب العليل: انَّ قلبي لمستعدّ يا ابتي... فانّي منذ سمعتُك لأوَّل مرَّة لم ازل امنّي نفسي بقدوم هذا اليوم السعيد وقبول هذا السرّ العجيب

— أولم تحدّثك نفسك بان تعدل عن عزمك لما قاسيتهُ من طول الانتظار وما نالك من الجفاء والنكال

— اني كنتُ اتبرَّم من طول المدَّة لكنّي لم اعرض قط عن مقصدي وكنتُ اعلم بأني ادرك حاجتي بلا مراء. كما وعدتني بذلك السيّدة العذراء.

فلمَّا سمع الحضور هذا الكلام قضى منهم العجب وعلم المرسل انَّ في قول الهنديّ لسرًّا فقال لهُ: وايّ وعدٍ وعدتك بهِ العذراء. أوَ هي التي دعتك الى النصرانيَّة ؟

— انَّ قصتي لطويلة غريبة... ما اعظم الربّ وما اشدّ مراحمهُ اليَّ

قال هذا واجهش بالبكاء . فهدأ الاب روعهُ وطيَّب خاطرهُ ثمَّ طلب اليهِ ان يقصَّ على الحضور حديثهُ بوجيز الكلام

فانقاد موترسومي مطاوعاً وقال : ان مهنتي كانت الحطابة فكنت اقضي نهاري بين الغابات اقطع فروع الاشجار وجذوعها ثم احزمها حُزماً واحملها الى بيت احد السادة فيجازيني عن اتعابي رزقاً كافياً . ولما كنت اميناً لهُ مواظباً في خدمتهِ مُحباً لدياني ذا وقار للآلهة زارني سيدي يوماً واهداني مكافأةً على اتعابي عدداً من افراخ الحمام فربَّيتها في بيتي وكنت مولعاً بمثل هذه الملاهي . لكنّي غبتُ ذات يوم فانقضَّ عقاب على برج الحمام (والعقاب طيرٌ نحسبهُ نحن الهنود في عداد الآلهة) واختطف حمامةً ثم جعل يأتيني بمثل هذه الزيارات المشؤومة حتى لم يبقَ في الوكر الّا حمامة واحدة فكنت اذا خرجتُ من البيت اخذتها معي خوفاً عليها من الإله . فبينما كنت في احد الأيام اجول في الغاب قصد الصيد لمحت الطائر المشؤوم يرفرف حولي كانهُ يرغب في الطير الباقي فخفت ان يصيب الحمامة ما اصاب اخواتها فخالج اذ ذاك فكري ما لحقني بسببهِ البؤس واستعرتْ من جرَّائهِ حرقة فؤادي فتناولت قوسي واوترتها وجذبتُ اليَّ النبل بعنف حتى وصل الوتر الى اذني ثم صوَّبتهُ الى العقاب فطار السهم ورشق الطائر فأَصماهُ . فسمعت دوياً عظيماً ورأيتُ العقاب ساقطاً على الحضيض

فشعرت اذ ذاك بما جنيت وأفلت القوس من يدي المرتجفتين وجعل فؤادي يخفق على غير العادة وساورتني الوساوس الغريبة فعفَّرتُ وجهي بالتراب وضربت الارض بجبيني والعبرات تنهلّ من مآقيّ كالوابل الهاطل . فكان يخال لي ان ذنبي لا يغتفر اذ قتلت ذلك الإله . . . واي ذنب يعادل ذنب قاتل الإله ؟ . . . ابتعدتُ عن جثة الطير الّا ان الوسواس لم يزايلني ولم يسكن اضطراب جأشي فكنتُ حيثما اسير ارى العقاب نصب عيني . . . امَّا الليل فكنت استلقي على سريري متفطّر الفؤاد مضطرمه ارعى النجوم طول الليل متسهّداً أرِقاً وكان شبح الطير وخيالهُ المرعب ينتصب امامي فأبادر لمصادمتهِ وهو يكرّ عليَّ فترتعد منهُ فرائصي واغيب عن رشدي برهةً ثم اصحو . . . وهكذا كنت اقضي لياليَّ في عراك وصدام . ثم ولجت الغاب واحتفرت حفرة وواريتُ فيها جثة الطير لكنَّ صورتهُ لم تزل مطبوعةً في ذهني فكنت اراها في يقظتي . اراها في منامي . اراها في كل مكانٍ . . . ومهماز الضمير يتعقّبني ويردّد على مسامعي : تبّاً لك .

سحقاً لك كيف قتلت الاله . . وكنت اراني ملطخاً بدم الاله اثاره في يدي وعلى ثيابي . .

ثم شرعت اهيم في وجهي طاوياً الصحاري والجبل في القر والحر منتقلاً من غابة الى اخرى عسى هذه الصورة الهائلة تتوارى ولو برهة زمان عن اعيني فيهنأ لي فيها الرقاد ويستريح قلبي . ولما كنت في بعض الطريق داهمني الليل وكان قد اضناني التعب فوقعت بالقرب من شجرة متوسداً لصم الجندل

غفلت عيني واكتحلت بشيء من السهاد فنسيت خطبي لحظة زمان ولكن شاء الرب ان لا يذيقني لذة الراحة الا ليعد نفسي لأشد بلوى وعذاب فانه ما استقر لي النعاس حتى شعرت بيد من حديد قد قبضت على عنقي وشرذمة من الفرسان احاطوني وكبلوني بالحديد فوعيت اذ ذاك لنفسي فرأيتني قد وقعت في البلاء وسمعت تبعة الشرط يقولون : « هذا المجرم . هو هو القاتل » . ولما لم أر سبيلاً الى الانكار وعلي الشهود البينة بؤت بذنبي . فحملني الشرط الى السجن ولست ادري من اين شاع امري وقد اخفيت جثة الطير ولم تكن عين تراقبني ساعة نفذ فيه سهمي فاذعنت لامر الآلهة موقناً بغضبهم علي وانهم هم الذين قضوا علي بالهلاك

وعند صباح الغد ساقني الشرط الى المجلس فمثلت امام القضاة فاقبلوا يسألونني عن اسمي ونسبي وسائر احوالي فاجبتهم عما سألوا ثم استنطقوني عما اذا كنت انا القاتل . فاقررت بالذنب علانية واجبت : اني انا القاتل . . .

فاستغرب القضاة جوابي وظنوها مني خدعة فقال احدهم : وهل عندك من الاسباب ما يوجب تخفيف العقوبة ومعاملتك باقل صرامة

— اني استسلم في ايديكم فافعلوا بي ما شئتم

فاجاب القاضي وكان قد أثر فيه قولي فاستفزته الرحمة : واي ذنب جناه نحوك الشاب المسكين الذي قتلته فثكلت امه وحرمت اخوته الصغار عنه

(قال موتوسومي) فاطرقت برأسي الى الارض واعملت الفكر في كلام القاضي فانجلت لي حقيقة الامر وفهمت اني قد وقعت في حبائل نصبت لي على غير علمي ، فان الهنود سكان الغاب كانوا قتلوا احد الشبان ولما اتى الشرط ليستفحصوا عن القاتل وجدوني ملقى على الحشيش واتهموني بتلك الجريمة وانا بريء من دم هذا الشاب وكان في وسعي ان اهتك ستر سكان الغاب والقي عليهم الشبهة

فأبيت وآثرت ان الزم السكوت تكفيرًا عن ذنبي الذي اتيتهُ بحق الإله الغراب ولما حُكم عليَّ بالسجن المؤبد حنيتُ الرأس مُذعنًا للقضاء. ورجعتُ الى سجني صامتًا لكنني ما كدتُ ادخل الكوخ المعدّ لحبسي وصرتُ في عزلتي بعيدًا عن عين المراقب حتى تراكمت عليَّ الهموم وتنازعتني هواجس الضمير ففكّرت في الانتحار لعلّي اتخلّص بالموت الاختياريّ من اعباء الحياة ثمّ خطر على بالي فكر التكفير عمّا جنتهُ يدي بقتل الإله ففضّلتُ التعويض عن اثمي ومراضاة الآلهة بصبري. فجثوت على الرُكب داعيًا: ارحموني أيها الآلهة . . . اني لقد اسأت في معاملتي لاحدكم وتكفيرًا عن سوء صنعي هانذا راضٍ بالسجن المؤبد مع قدرتي على النجاة منهُ فأقبل الذلّ والعار وفاءً عن ذنبي وحظوةً بمرضاتكم فارحموني . . . وأقيلوا عثرتي » وكنتُ اتلو هذه الصلاة صباحَ مساء. عسى أن انال بها الصفح عن خطيئتي. ولمّا كنتُ ذات ليلة منطرحًا على الحضيض أُناجي الآلهة واطلب رضاها اذ . . .

وهنا انقطع موتوسوي عن الكلام وترقرقت عينهُ بالدمع . . . فسألهُ الاب دوبوي أيشعر بألم او ضنك لطول الحديث. فاجاب الهنديّ: « كلّا ابتِ انّ رواية هذا الواقع تملأ قلبي عذوبةً وكلّما تذكّرتهُ هطل الدمع مدرارًا من عيوني. . . آه ما اعظم مراحمك نحوي أيها الربّ يسوع » . قال هذا ثمّ عاد الى سرد حديثه

وأنا في صلاتي واذا بنور زهيّ سطع على طرف كوخي الحقير ولم يزل النور في ازدياد حتى جلّل كل جهات منزلي وتراءت لي في وسطه صورة سيّدة . . . او ملكة . . . او . . . آه لذلك الجمال ما . . . افتنهُ للقلوب . . . ثمّ نظرت السيّدة اليَّ فكاد الجنان يذوب بذلك النظر نعمةً ويتطاير فرحًا . فلم أعد ادري أانا في الارض او في نعيم السماء . . . ثمّ قالت لي بكلام احلى من الشهد والطف من النسيم: بُنيّ لقد اعجبتني سلامة نيّتك وصدق طويّتك . علمْ انّ العقاب الذي رشقتهُ بسهمك ليس بإله وانّما هو من بعض خلائق الإله وقد تعبّد لهُ قومك جهلًا كما اكرموا اصنامًا باطلة لا خير في عبادتها . وانّما الاله الصمد هو ابني الربّ يسوع فايّاهُ اعبد وبدينهِ اعتصم تنلْ حياةً ابديّة

فصرختُ اليها: ومن يهديني الى هذا الاله

اذهب الى المرسل الذي يزور المسجونين واطلب منهُ ان يغسلك بالماء الماحي للخطايا

فاردتُ ان اسألها عن هذا الماء واذا الصورة قد اختفت عن العيان واخذ النور يتزوى ويتوارى فرميت بنفسي على الحائط لاقبض عليه لكنهُ افلت من يدي المرتجفة وزال عن عياني

قال الاب دوبوي: أوَ تذكر هيئة تلك السيدة التي رأيتها ؟

كانت عذراء ولكنني لم اميّز لونها وهيئتها. وغاية ما يمكنني القول فيها انها كانت ماتحفة بالنور بل كلها نور... آه ما كان ابهاها فبي مجرَّد ذكري لها يطفح قلبي عذوبة وتحلو لي مرارة سجني... فارجوك كلَّ الرجاء ان تسرع فتصبَّ على رأسي الماء الماحي للخطايا فأُدرك مُنيتي واتمم ارادة السيدة

فلمَّا فرغ موتوسومي من حديثهِ سكت حيناً وحدَّق بنظرهِ الى السماء مبتسماً كأنهُ يحاول النظر الى الرؤيا التي ظهرت لهُ

امَّا الاب دوبوي فلحظ أن قوى السجين زادت خوَرًا فباشر برتبة العماد والحضور يجيبونهُ على صلواتهِ ويشكرون الله على ما خوَّل ذلك المسكين من سوابغ النعم. ولمَّا انتهى الكاهن الى الفاظ الرَّ صبِّ الماء الماحي للخطايا على رأس موتوسومي معمِّدًا لهُ باسم الله الآب والابن والروح القدس. ودعاهُ باسم رسول الامم بولس

فأمَّنَ الهندي وشعر كأنَّ افراح السماء حلَّت في قلبهِ . وكنت ترى محيَّاهُ يتلألأُ بأنوار النعمة ولسانهُ يترطَّب باقوال الشكر لهُ تعالى الذي اصطفاهُ بين عبادهِ وغمرهُ بسجال مواهبهِ وفيض نوالهِ

وبقي مدَّة غائصاً في بحر التعزية اشبه بملائكة الله. ثمَّ تقدَّم اليهِ الاب دوبوي وطلب منهُ أيصفح من صميم الفؤاد عن كلِّ من آسى اليهِ وكانوا سبباً لما قاساهُ في السجن من النكال دون ذنب منهُ

وكأن بولس خجل من هذا الكلام فقال للمرسل: «انَّا الاحرى بي انا أن استغفر عمَّا أسأتُ بهِ اليك أيها المحبّ والى كلِّ رفقتي اذ رأيتني مقصِّرًا في اداء حقوقهم... امَّا الذين آذوني في شيء فاني اسامحهم بهِ تماماً بل اشكر الربَّ عنهُ لما اناطني بذلك من نعمة التشبُّه بالهِ الصليب ... والآن لم يبقَ لي الَّا ان اطلب من الله أن يطلقني بسلام ويجمعني بفرقة الابرار فأُعاين الله وجهاً بوجه واحظى برؤيا امّ النور...» ثمَّ سكت ثانية

وكان الحضور في دهشة واندهال من كلّ ما يرون ويسمعون وهم يحبسون انفاسهم لئلَّا يفوتهم شيء من هذا المشهد البهيج . ولبث بولس لا يبدي حراكًا وانّما كانت شفتاه تختلجان بعد بالصلاة فألصقهما الكاهن على الصليب الذي قرَّبهُ من فيهِ . وكانت امارات الهدو والسكينة بادية على وجههِ الساطع بانوار النعمة . . . وبعد هنيهةٍ فتح عينيهِ ثمَّ مدَّ ذراعيهِ كأنهُ يلبّي دعوة داعٍ الى ان صرخ: يسوع . . . مريم . . . هاءنذا . واسلم روحهُ البارَّة الى خالقهِ

فجثا الاب دوبوي عند رأسهِ وصلَّى عندهُ مليًّا . . . وتحقَّق الجميع بأنَّ نفسهُ انتظمت في مصفّ الابرار

٭

ولم يزل كل من شاهد هذا الحادث يذكرهُ ثمَّ شاع تنصّر موتوسومي بين قبائل الهنود وأثَّر مثالهُ في نفوسهم حتى انَّ أُلوفًا منهم طلبوا نعمة التنصّر قدوةً بهِ واذاعوا مراحم العذراء التي عطفت على احد ابناء وطنهم وكافأته بما طُبع عليهِ من سلامة النيَّة

المذاكرات الجغرافيَّة في الاقطار السوريَّة

للاب هنري لامنس مدرّس التاريخ والجغرافية في المكتب الشرقي

٢ موقع سوريَّة (تتمَّة)

وقبل ختامنا لهذا الفصل الذي كتبناهُ في موقع سوريَّة وجعلناهُ كتوطئة لابحاثنا في جغرافيَّة الشام ينبغي لنا ان نضيف اليهِ بعض ملحوظات عموميَّة

من خواصّ الشام كما سبق القول ان لها حدودًا ظاهرة وتخومًا مقرَّرة . وفي ذلك فائدة كبيرة لأنَّ تخوم البلاد بمثابة حدود الاملاك وحواجزها التي تصونها من كلّ تعدٍّ ومخاصمة . وفي الواقع ترى جهات الشام مفروزة عمَّا سواها فلا تستطيع ان تخلط بينها وبين البلاد المجاورة لها كآسية الصغرى مثلًا لانَّ بين الشام والاناضول طودًا شاهقًا يفوق بارتفاعهِ جبال البيرانأي الذي يفصل فرنسة عن اسبانية وهو اعظم مهابةً منهُ . كذلك من جهة الشمال الشرقيّ نهرٌ وهو الفرات معدَّل عرضهِ ٥٠٠ متر يفصل الشام عن بلاد

ما بين النهرين. امَّا الفاصل بين الشام ومصر وانحاء العرب فبحرٌ بلا ماء اي البوادي القفرة الواسعة التي يسهل دونها قطعُ البحار وقد بيَّنَّا قبلًا ان البحار صارت اليوم من اسباب الوصال وهيهات ان يصدق ذلك في الصحاري والقفار

وخلاصة الكلام انَّ بلاد الشام مجموعٌ منفردٌ قائمٌ بذاته لا يمتزج بتخوم غيره ليست كأنكلترَّة معتزلة عمَّا سواها مفتوحة الثغور لمن يطلبها. لكنَّ هذه العزلة لم تعرّض بلاد الشام للفتور والخَبَل كما جرى لبلاد الصين وراء حائطها الكبير بل قاسمت البلاد المتمدّنة في حركتها وناهيك بالحركة بركةً وخصبًا وترقّيًا. وقد اثبتنا في ما سبق انَّ الشام رأت من تقلُّبات الدول وفتوحاتها ما قلَّ لبلد آخر ان يختبر مثلهُ. فانَّ الامم القديمة تجاوزت تلك التخوم وخرقت تلك الحواجز وعدَّت الشام كطعمة تتنازعها مطامع «ذُباب مصر ونَحل اشور» كما قال اشعيا النبيّ (٧ : ١٨). وكانت الامم البائدة تعتبر فتح الشام وفلسطين كاعظم فوز تفوز به لأنَّها كانت تجد في هذه البلاد معبرًا اكيدًا لتصريف تجارة الهند في موانئ بحر الشام وبابًا واسعًا لفتح افريقية وآسية المتقدّمة. وهذا الحكم قد خطر منذ نحو ٥٠٠٠ سنة على بال سرغون احد ملوك بابل فأثبتهُ في بعض مآثره

وقد سبق لنا القول في سبب انتقال الحركة التجاريَّة العموميَّة في عهدنا. فعلَّة ذلك انَّ القطب الذي عليه كان مدار الحركة التجاريَّة لم يَعُد في مكانه مارًّا في وسط بلاد الشام بل تحوَّل عن ممرّه فصار يمتدُّ في طريقين أُخريين امَّا في شرقي الشام وامَّا في غربيها. وليس هذا الخلل الوحيد الذي تدلّنا عليه القوانين الجغرافيَّة فانَّنا نرى خللًا آخر يضعف هذه البلاد تشير اليه الجغرافيَّة ايضًا

*

تشبه سوريَّة في هيئتها الطبيعيَّة مربَّعًا كبيرًا يقيس طولهُ ثماني مرَّات عرضهُ لأنَّ طولهُ من جبل طورس الى جبل سينا لا يقلُّ عن ١١٠٠ كيلومتر بخلاف عرضه الذي لا يتجاوز معدّلهُ ١٥٠ كيلومترًا: وكلٌّ يعلم انَّ مثل هذا التباين في الاقيسة يضرُّ بالموازنة ويمنع الارتباط والوحدة بين جهات البلاد. لأنَّ الجسم السياسيّ اذا امتدَّت اطرافهُ فبعُدت عن مركز الحكم خفَّ فعلهُ فيها ومن ثمَّ ترى الانحاء تطلب التفرُّد فتضعف القوَّة العموميَّة. وهذا ممَّا يظهر اليوم في بعض البلاد رغمًا عن الروابط العظيمة

التي تستعين بها الدول في عهدنا لضمّ اطرافها وتوحيد عناصرها كاحتكار القوَّة وتعميم التعليم والجنديَّة الالزاميَّة وغير ذلك ممَّا تفرَّدت به الدول الحاليَّة . مثال ذلك ما تجدهُ في ايطالية فانَّ الحكومة الواحدة تحكم على بلاد مختلفة طبائع واغراضاً كبلاد بيامنتي في الشمال وبلاد صقلية في الجنوب وحتَّى الآن لم تقوَ الحكومة على مزج هذه العناصر المتباينة وتوحيدها

ويضاف الى هذا الخلل في تركيب سوريَّة الجغرافيَّة خلل آخر ليس باقلَّ ضرراً منهُ بوحدة ادارتها نريد سلاسل جبالها التي تخترق البلاد فتمنع اختلاط طوائفها وتوحيد عناصرها . كما ترى في سويسرة وجهات الاناضول حيث ارتفعت ايضاً الجبال الشاهقة فاضرَّت بامتزاج اقسامها . والتاريخ يعلمنا انَّ الدول الكبرى كانت تجعل مراكزها في السهول . اما سهول سوريَّة فتراها بعيدة عن مركز حركتها معتزلةً في طرفها الشماليّ الشرقيّ وتلك الجهة اشبه ببادية مقفرة وهي منزوية معتزلة فلا تستطيع ان تنشأ فيها مدينة عامرة تحيي الاطراف بنفوذها

وما هو اخطر من ذلك انَّ هذه الجبال السوريَّة التي يبلغ معدَّل علوّها ٢٠٠٠ متر تقوم في وسط البلاد كحاجز متواصل يفرد كلَّ طائفة في مكانها ويؤثر في حياتها فاصلاً كلَّ قسم عن اخيهِ بحيث لا يمكنهُ ان ينال منهُ فائدةً لترقيهِ وتمدّنهِ . لاسيما انَّ هذه السلسلة تمتدّ من الشمال الى الجنوب وهي وجهة اقلّ نسبةً لامتزاج الشعوب من وجهة الغرب الى الشرق . لان السكَّان اذا انتقلوا تابعين لدرجات العرض امكنهم ان يعتادوا تغيير الاحوال الجويَّة بخلاف الذين يتبعون درجات الطول فانهم يُبلَون بمقاساة المظاهر الجويَّة التي لم يعتادوها

وزد عليهِ انَّ جبال الشام تنفصل في سوريَّة الوسطى الى سلسلتين متوازيتين لا تكاد الثانية تختلف في علوّها عن الاولى . وهذه السلسلة الجديدة تُدعى بالجبل الشرقيّ تمدّ شُعَبها على نواحي دمشق وبادية تدمر وحوران وما وراء الاردن . والجبلان اشبه بحائطين هائلين بينهما البقاع والغور كوادٍ غريب يبلغ منهبطهُ عند طرفهِ الجنوبيّ اي بحر لوط عمقاً لا يقلّ عن ٤٠٠ متر تحت سطح البحر المتوسط

والحقّ يقال انَّ الطبيعة احسنت الى سوريَّة في شيء . اذ حصَّنتها بسور من الجبال لكنَّها افرطت في توفير هذه الجبال في قلب البلاد . فانَّ السائر الذي يتوغل من سواحل

الشام الى الجهات الداخلية يلقى في مسيره خمسة انحاء جغرافية تختلف احوالها كل الاختلاف في حرارتها وهوائها ونباتها مع قلة اسباب المواصلات بينها لأنَّ السلسلة الكبيرة التي تمتد طولًا في وسط سورية لا تنقطع انقطاعًا محسوسًا الَّا عند غور طرابلس حيث توصل جبل النُّصيرية باوَّل منعطف لبنان آكامٌ قليلة الارتفاع

ولو قطعت سورية تبعًا لخط الهاجرة اي من الشمال الى الجنوب لوجدت فرقًا كهذا. فان الطبيعة قد قسمت سورية الى خمس او ست كُوَر مختلفة السعة تعزلها عن بعضها الانهار او الجبال بحيث تستطيع كل كورة ان تكون منفردة عن اختها (١ فتجد في الشمال البلاد المرتفعة الواقعة بين الفرات وحوض العاصي. وفي الوسط بلاد البقاع بين سلسلتي لبنان غير المتساويتين. ثمَّ دمشق وغوطتها من جهة وفينيقية من جهة أُخرى. واخيرًا في الجنوب مجموع بلاد متباينة كأنها طبقات درجيَّة ترتفع فوق بعضها على جانبي وادي الاردن شمالًا ويمينًا

وممَّن لحظوا هذه الاختلافات الغريبة التي خُصَّت بها انحاء الشام جغرافيٌّ عربيٌّ من مشاهير كتبة القرن العاشر نريد شمس الدين ابا عبدالله محمَّد بن احمد المعروف بالمقدسي وكان اصلهُ من الشام فانهُ دوَّن في كتابهِ الموسوم « باحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ملحوظًا جغرافيًا يدلُّ على توقُّد ذهنهِ ودقَّة فكرهِ قال في وصف اقليم الشام (في الصفحة ١٨٦) :

«وَضع هذا الاقليم ظريف. هو اربعة صفوف: الاوَّل يلي بحر الروم وهو السهل رمالٌ متندة ممتزجة يقع فيهِ من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل. والصفّ الثاني الجبل مشجَّر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيهِ من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجُّون وكابل وقدَس والبقاع وانطاكية. والصفّ الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيهِ من البلدان ويلة وتبوك وصغر واريحا وبيسان وطبريَّة وبانياس. والصفّ الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون واشجار يقع فيها من البلدان مآب وعمَّان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب. وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصدّيقا ولبنان. واللكام وسرَّة الارض المقدَّسة في الجبال المطلَّة على الساحل»

وكلّ هذه الفروق في الوضع الطبيعي قد علَّلت بتتابع الأيام اطوارًا تاريخيَّة مختلفة وكثيرًا ما عاش اهل تلك الانحاء يجهل بعضهم بعضًا. فالجبليُّون يتحصَّنون في مشارفهم

---

١) اطلب تاريخ الامم الشرقيَّة للعلَّامة مسپرو (ج ٢ ص ١٤)

الطبيعيَّة كما في قلاع حريزة وكذلك اهل المنعطف الشرقي كانوا مبتعدين عن سكّان السواحل . وهؤلاء لا يفكّرون الّا في سفنهم وبحريتهم لا يكترثون لمن توطَّن السهول الداخليَّة . وقد أدّت بالفينيقيين عزلتهم وحبّهم للتفرّد انَّ كلّ فئة كانت تقصر نظرها الى قطعــة من الارض ورثتها من اجدادها فتكتفي اما برأس ساحليّ واماً بخليج او جزيرة كما ترى في ارواد وجُبيل وصيداء وصــور لكلّ منها استقلالها النوعيّ . ولهذا السبب نرى السوريين منذ اقدم الاجيال منقسمين الى عدَّة طوائف متخاصمة تسعى كلّ واحدة منها حتى اصغرها في حفظ منافعها الخاصَّة ولا تزال تدافع بالحرب العوان عن قطعة من الارض او بعض فدادين من المزارع او بعض الاحراج الجبليَّة . فترى القتال قائماً على ساق بين هذه المقاطعات فيستولي عليهــا الخراب والدمار كأن عدوًّا مغواراً دخل فيها واعمل فيها السيف والنار » (١

وان اعتبرت تاريخ سوريَّة وجدت هذا الاقليم متقسّماً الى ايالات منفردة تسكنها العشائر المنفصلة . ففي سوريَّة تعدَّدت روساء القبائل وشيوخ الطوائف وروساء الرُبع فيجد محبُّ المسكوكات والمكاتبات مادَّةً واسعة لدرس آثارهم لكنَّ المؤرخ يتيه في بيداء اقسامهم السياسيَّة

وكانت نتيجة هــذه الانقسامات الشعبيَّة والتفرُّقات في الأغراض والاملاك انَّ البعض وجدوا فيها ما يوافق مطامعهم ويعظِّم اشخاصهم لكنَّها اضعفت القوى وقسمت الكلمة . وهذا ما نراهُ في تاريخ سوريَّة في اقدم الآثار تشهد عليــهِ مراسلات تل العمارنة التي ترتقي الى المئة الخامسة عشرة قبل المسيح (اطلب المشرق ٣ : ٧٨٥— ٧٩٤) فتؤخذ من هذه المكاتبات انَّ دُوَلًا عديدة كانت تتزاحم مذ ذاك في سوريَّة منها في السهول ومنها في الجبال بل كانت كلّ مدينة عبارة عن دولةٍ يتحصَّن فيها اهلها ويردُّون غارات الدولة المجاورة . ولو شاء المسافر لقطع في اليوم الواحد تخوم عدَّة املاك مستقلَّة . هذا ما ورثهُ تاريخ الشام بكثرة التقاسيم الجغرافية والحواجز الطبيعيَّة

---

١) راجع تاريخ مسبرو في تاريخهِ المذكور

الدم : تركيبهُ وخواصّهُ

للاب بولس بوفيه لايبار اليسوعي مدرّس الكيميا في المكتب الطبي (تتمة)

الكريَّات البيضاء

في الدم ما خلا الكريَّات الحمراء كُريَّات بيضاء (leucocytes) كان العلماء سابقًا لا يعبأون لها كثيرًا لجهلهم بمنافعها ووظائفها . واما اليوم فقد صارت مادَّةً لأبحاث متعدّدة واكتشافات خطيرة . فانَّهُ قد ثبت حديثًا انَّ هذه الكريَّات تلعب في جسم الحيّ دورًا كبيرًا لدفع الامراض العفنيَّة عنهُ . ومن فوائدها ايضًا انَّها تتكيَّف بكيفيَّات شتَّى في عدَّة ادواء فيستدلّ بها الطبيب على تشخيص المرض . وممَّا يُقال اجمالًا انَّ صحَّة الجسم مرتبطة ارتباطًا تامًّا بحسن حال هذه الكريَّات البيضاء . فترى من ثمَّ انَّنا لا نستطيع السكوت عنها في كلامنا عن الدم وتركيبهِ

اذا ما فحصتَ بالنظَّارة دمًا عبيطًا يتفوَّر من الشرايين دون اتّخاذ احتياطات خصوصيَّة لاحت لك الكريَّات البيضاء كاجسام مستديرة كرويَّة متشابهة يزيد كبرها في الغالب على كبر الكريَّات الدم التي اتّسعنا في وصفها . وتكون هذه الكريَّات زاهية اللون فضيَّة البياض لكنَّ بياضها لا يؤثّر في لون الدم لقلَّة عددها بالنسبة الى الكريَّات الحمراء وهي اقلّ منهُ بنحو الف ضعف

اما من حيث الجوهر فان هذه الكريَّات خلايا تامَّة حيَّة ولكل خليَّة غشاء غاية في الدقة وربَّما خلت من هذا الغشاء . ولها شأنَ الخلايا التامَّة نواةٌ يصعب نظرها دون استحضار خاصّ . واذا استُحضرت بتلوين موافق ظهرت تلك النواة بنوع جليّ

وتكون النواة على ثلاث صور خصوصًا منها اتخذوا تقسيم الكريَّات البيضاء في حالتها العاديَّة الى ثلاثة اقسام

فالقسم الاوَّل منها يُدعى بالكريَّات البيضاء الكبيرة النواة (lymphocytes) تكون على قدر الكريَّات الحمراء لها نواة كرويَّة تمتدُّ على طول امتداد الكريَّة وانَّما لها على دائرتها غلاف صغير من مائع المادَّة الاصليَّة المسمَّى پروتوپلسما (protoplasma) والمائع المذكور خالٍ من كل تحبُّب . امَّا نسبة عدد هذه الكريَّات الى بقيَّة الكريَّات البيضاء فنحو ٢٥ في المئة اي ربعها (اطلب الشكل ١١)

والقسم الثاني من هذه الكريات البيضاء يُدعى بالكريات المنفردة النواة (leuco-cytes mononucléaires) وهذا الجنس تكون كرياته اكبر من القسم الاول. لكنَّ عدده قليل بالنسبة الى القسمين الآخرين اذ لا يتجاوز ٧ او ٨ في المئة. ولهذه الكريات نواة تكون امَّا على شكل بيضوي (انظر الشكل ١ ب) واما على شكل كلوي وهو الاغلب او ايضاً على شكل هلالي (انظر الشكل ١ ج). ومانع المادَّة الاصليَّة هو في هذا القسم اوفر منهُ في القسم الثاني وهو خالٍ ايضاً من كل تحبب

اما القسم الثالث من هذه الكريات البيضاء وهو اوفرهُ عددًا فهو الجنس للدعوّ بالمتعدّد النواة (leucocytes polynucléaires) وهو الذي يمكن اعتباره كخلايا الدم الحقيقيَّة. وعدده يكون عادةً بالنسبة الى القسمين الآخرين ٦٥ او ٦٦ في المئة. وهذا الصنف يُدعى بالمتعدّد النواة لأنَّ بعض العلماء ارتأوا مدَّةً انَّهُ يحتوي عدَّة نوًى منفردة مستقلَّة. لكنَّ هذا الاسم لا يوافقهُ في الحقيقة وقد تبيَّن اليوم انَّ نواهُ ليست بتعدّدة وانَّما يكون للنواة الواحدة ثلاثة او اربعة افلاق غير متساوية مرتبطة بالياف غاية في الدقَّة كأنَّها حبَّات السبحة او قِطَع النقانق. ومن خواصّ هذه الكريات انَّ مانع مادَّتها الاصليَّة مشحون بحبيبات دقيقة تظهر للعيان اذا صُبغت بالالوان (الشكل ١ د) وتختلف احوالها على حسب المواد الملوّنة لها ولذلك قسموها ايضاً الى اقسام لا نرى هنا داعياً لشرحها

هذا وقد اتَّسعنا قليلًا في الكريات البيضاء لأنَّ في تفصيلها وتعريف اقسامها فوائد يكتشفها العلماء كلّ يوم بابحاثهم وعليها الآن يبني الاطبَّاء تشخيصهم لبعض الامراض وذلك انهم يلحظون عدد هذه الكريات فيستدلُّون بتوفُّر عددها او بندرتهِ على صنف المرض واحوال المريض

قلنا انَّ هذه الكريات تظهر على شكل مستدير كرويّ لكنَّ هذه الهيئة ليست هيئتها النظاميَّة وانَّما هي توازنها بعد موتها. وقد توصَّل العلماء الى ان يشخصوها كما هي في الجسم فيتخذون لذلك نظَّارة مجهَّزة بصفيحة محماة تحفظ للدم حرارتهُ الطبيعيَّة فتلوح حينئذٍ تلك الدقائق الدمويَّة على اشكال مخالفة للشكل الكروي في الغالب

وممَّا يزيد شأن هذه الكريات البيضاء كونها خلايا تامَّة ذات نواة وهذا ما يجعل رتبتها فوق رتبة الكريات الحمراء. فانَّ الكريات الحمراء كوائن جامدة لا حياة لها ولا

ثبات الّا بمرونتها الطبيعية تتناقلها حركة الدم وتدور بها كما تشاء. اما الكريّات البيضاء فعلى خلاف ذلك فانّها كائنات قائمة بذاتها حيّة عاملة لها حركتها الخاصّة تستعين بها لاعمالها كيفما تشاء

ولا شيء اغرب من رصد حركات الكريّات بيضاء. فانك ان لحظتها وجدتها على صورة جسم دقيق مُفاطَح لهُ دائرة غير سويّة تختلف ابدًا على نظر المراقب. فان مانع المادّة الاصليّة اي البروتوبلسما لخلوّهِ من الغشاء الضاغط لهُ يمكنهُ ان يضغط جوهرهُ او يبسطهُ كما يشاء. فتراهُ تارةً يستطيل وتارةً ينبسط وحينًا ينعطف على نفسهِ وطورًا يمدّ حولهُ شبه القوائم (pseudopodes) ثمَّ يقبضها ويواريها في خليّتهِ ويركّب غيرها بدلًا منها. وهذه القوائم الاصطناعيّة تُعين الكريّات البيضاء على الحركة فتسير في جوانب العروق كسير الحلزون على الارض (انظر الشكل ٢) وقد دعا العلماء هذه حركات الكريّات البيضاء بالحركة النقاعيّة لانها شبيهة بحركات النقاعيّات اي الحشرات الدقيقة التي تُرى في المستنقعات والتي تتركّب مثل الكريّات البيضاء من خليّة مفردة. واكثر ظهور هذه الحركات في الصنفين الاخيرين من الكريّات البيضاء التي وصفناها لأن الصنف الاوّل لا يظهر مطلقًا الّا على صورة مستديرة كرويّة

وأغرب من ذلك انّ الكريّات البيضاء لا تستطيع فقط ان تمدّ قوائمها وتضغطها بل يمكنها ايضًا ان تنفصل ثمّ تلتحم بها وتضمّ الى ذاتها الدقائق التي تلقاها في طريقها كبقايا الخلايا والميكروبات والموادّ الغذائيّة اللطيفة (اطلب الشكل ٤) وهي تهضم كلّ هذه الدقائق كما تفعل الحشرات النقاعيّة. وان سألت كيف يمكنها ان تقوم بهذه الاعمال العجيبة. أجبنا انّ الله خوّلها لذلك قوّة تمكّنها من العمل فانّها تصطنع لنفسها مختمرات لتحلّل بها تلك الاجسام الغريبة وتحوّلها الى ذاتها. وهذه لعمري خاصّية غريبة تجعل للكريّات البيضاء شأنًا عظيمًا. ولذلك قد دعوها بالخلايا المفترسة او فاغوسيت (phagocytes) لانها تلتهم كما قلنا للدقائق الغريبة وتحوّلها الى غذائها

ولهذه الكريّات عينها خواص اخرى ليست اقلّ غرابةً فانّها بجهاز قوائمها الاختياريّة يمكنها ان تنفذ في الانسجة الشديدة الاحتباك وتتسرّب في وسط خلايا الجسم وتخرج من العروق والشرايين بثقب جدرانها ثمّ تعود اليها بعد خروجها وهكذا تراها جائلةً في كل اطراف الجسم حيثما يحتاج اليها الحيوان لمآفيته. وقد دعوا تنقّلها في اقسام الجسم

واكثر ما يظهر نشاط الكريات البيضاء في انحاء الجسد التي تتراكم فيها الاوساخ والعفونيات كما يحصل في القروح وقت التحامها فان الكريات البيضاء تتواثب الى المكان المصاب وتشتغل بالتنظيف والتعزيل فلا تزال تلهم وتبلع كل ما تجده حتى القطع الكبيرة من الاجسام الغريبة ولذلك قد دعوها باسم الكريات الملتقمة (ma- crophages) اي البالعة للقم الكبيرة اما الكريات البيضاء المتعددة النوى فانها تتبع دقائق الجراثيم فتلتهمها فدعيت لذلك بالكريات المتقرمة (microphages)

ولا تكتفي هذه الكريات البيضاء بان توزع على كل قسم من اقسام الجسم غذاءه فانها هي ايضاً التي ترحضه وتنظفه من اوساخه وفضلاته فان للجسم كما للمدينة فضلات نافلة او ضارة لا بد من ازالتها وملاشاتها . وهذه الفضلات يلقيها الجسم في الدم فتتسارع اليها الكريات البيضاء فتلتهمها وتفنيها

وهذه المهنة لتطهير الجسد وتنظيفه قد خصت بها كريات الصنف الثاني اي المنفردة النواة والدليل على فعلها ما يرى فيها المراقب من الآثار كبقايا الكريات الحمراء الميتة وقطع الخلايا ودقائق الغبرة واشياء غيرها غريبة عن الجسم فان الكريات البيضاء تزدرد كل شيء ويتد فعلها الى شقائقها نفسها النوى المتعددة اذا فسدت وتغيرت فانها تلاشيها وتبتلعها

وهذه الاخيرة هي التي تشهر الحرب العوان على الميكروبات والجراثيم المعدية فيقوم بين الفريقين قتال عظام لا يحس به الانسان لكن ناره لا تزال تتسعر الى ان يفوز احد الفريقين بعدوه . ودونك وصف ذلك العراك الذي يجري في ميدان الجسم كل يوم

هب انه حصل في بشرة الانسان سحج او تقشير او جرح فالميكروبات التي في الخارج هي على الباب منتظرة فتحة لتهجم على المدينة فتستوطن المكان ثم تتناسل وتتكاثر مع ما تجده هناك من الأكل المريء ونعومة العيش لكن للميكروبات سماً ذعافاً تنفثه بعد قليل في الجسم ولولا سهر الكريات البيضاء لسمت الجسم لا محالة . فانظر رعاك الله ما جعل الخالق في حرس الجسم من الهمة والنشاط . فان الكريات البيضاء المتعددة النوى اذا لحظت آثار السم حملت بخيلها ورجلها زاحفة الى الثغر المفتوح فنها ما يجري تابعاً لدورة الدم ومنها ما ينفذ في انسجة الجسم كما يفعل اهل المدينة اذا سمعوا بعدو دخل مدينتهم فيتواثبون هذا يقطع الطرقات وذاك يقفز على السطوح وكلهم يتهافتون

الى محلّ الخطر لردّ غارة العدوّ. فعلى هـذه الصورة تتراكم الكُريات البيضاء المتعدّدة النوى لتصون الجسم وتفتك بالمعادين لانَّ تلك وظيفتها الخاصّة دون شقائقها الاخرى من الصنفين الاخرين التي لا تنزل في ميدان العراك

واذا وصلت بعد قليل الجنود الدافعة الى محلّ العدوّ تنشب الحرب بين الكريات والميكروب فان كان هذا قليل العدد غلبتهُ الكريات لا محالة واستأصلت شأفتهُ بسرعة (اطلب الشكل ٤) . اما اذا كان جيش العدوّ وافرًا فتكون الوقيعة شديدةً لانَّ الكريات البيضاء اذا التهمت من الميكروبات حاجتها ضعفت قوتها الهضميَّة وفي اثناء ذلك لا تزال الميكروبات تشبُّ القتال وتدافع عن نفوسها على قدر طاقتها وهي تتوالد وتنمو بسرعة عجيبة حتى. انَّ الميكروب الواحد في بعض الاحيان ان وُجد في مواطن موافقة لنموّه يمكنهُ ان يتناسل ويتعدد الى ان يبلغ عددهُ بعد ثلاثة ايام ٤٧٧,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وهو عدد لا يكاد يحصيهِ الّا الخالق

نعم انَّ هذا العدد الوافر لا يُنال في الواقع لأنَّ الميكروبات لا تحلُّ في موطنها الخاصّ ليخلو لها الجوّ وقد عرفتَ انَّ الكريات البيضاء هي عدوّها الألد تلتهم منها الالوف المؤلفة فضلًا عن سمّ او قلْ بالحري ترياقًا تنتجهُ لا لقتل صاحبها بل لتسميم عدوّها الازرق اي الميكروب وهذا السمّ يخدّر الميكروب ويكسر قوّتهُ . فترى انَّ للجيشين اسلحة قويّة تكنُّ في الحروب لا شيء يقوى على العدد فمهما كانت مدافعة الكريات البيضاء شديدة واسلحتها حسنة ونشاطها عظيمًا اذا اربى عدد المعادين على الالوف وألوف الالوف وبقي عدد المدافعين محصورًا فلا بُدَّ ان تكون الدورة على المدافعين والفوز لجيش الميكروب فيدخل في اجهزة الحياة كما يدخل العدوّ الظافر في ساحات المدينة التي فتحها عنوةً ولا يلبث جسم الانسان ان يصير ضحيّة الفاتح ويسطو عليهِ الموت

امَّا اذا كانت الغلبة للكريات البيضاء فترى ساحة الوغى مشحونةً بالصرعى من قتلى وجرحى وآثار متعددة فيحتاج المكان الى رحض وتنظيف وتعزيل وتطهير وهو عملٌ كما سبق القول مختصّ بالكريات البيضاء من الصنف الثاني اي ذات النواة الوحيدة فتُقدم الى ميدان القتال بعد نهاية الحرب وتجد لشهوتها للطعام مأكلًا طيبًا غزيرًا فتفتّشُ ذلك الخوان قشًّا وتبلع كلّ ما لا يصلح لصحّة الجسم حتى شقائقها السقيمة ولا تكفّ عن العمل الى أن يحصل كلّ شيء على حسن حالهِ فيعود الدم الى

دورانه فيغذي كلّ انحاء الجسد ويهنأ الانسان بالعافية التامة . والفضل في ذلك للكريات البيضاء

فيا لله كم في جسم الانسان من عجائب يجهلها وكلّ ما قدّمناهُ في هذا الفصل أنّما هو زبدة الابحاث التي اجراها العلماء منذ سنين قليلة ففتحت لنا عالمًا جديدًا ما كنّا لنتوهّم غرائبهُ ومحاسنهُ

وفي كلّ تحريكةٍ وتسكينةٍ في الورى شاهدُ

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

واشتهر ايضًا في التاريخ من نصارى الملكيين الكاثوليك رجلان من بيت الصبّاغ كانا حفيدين لابراهيم الصبّاغ طبيب ظاهر العمر (اطلب المشرق ٨ : ٢٦) اسم احدهما عبود والآخر ميخائيل بن نيقولا بن ابراهيم . وكان اهلهما بعد وفاة جدّهما ابراهيم سنة ١٧٧٦ هربوا الى مصر حيث نشأ الولدان وتخرّجا بالآداب على اساتذة القطر المصري(١ ثمّ لمّا كان قدوم نابوليون الى مصر ومعهُ عدد من مشاهير العلماء اتّصل عبود وميخائيل بهؤلاء الكرام وصارا في خدمتهم الى ان انتقلا معهم الى فرنسة . وقد أتّسمنا في المشرق (٨ : ٣١—٣٣) عمّا خلّفهُ ميخائيل من التركة العلميّة الثمينة اجلّها بعض التآليف التاريخيّة التي لا تزال مخطوطةً في مكتبتي باريس ومونيخ منها تاريخ اهلهِ بيت الصبّاغ وبيان احوال طائفتهِ الملكيّة الكاثوليكيّة . ولهُ ايضًا متفرّقات ضمّنها تاريخ قبائل البادية في أيامهِ وتاريخ الشام ومصر . هذا فضلًا عن كتبهِ اللغويّة والادبيّة كالرسالة التامّة في كلام العامّة ومسابقة البرق والغمام في سُعاة الحمام وكلاهما قد طُبع في اوربّة . ولهُ مآثر من النظم نذكرها في الادبيّات . امّا عبود فانّ لهُ في مخطوطات باريس تاريخًا (Fonds arabe, *Paris*, 4610) جمع فيهِ اخبار ظاهر العمر دعاهُ «الروض الزاهر في تاريخ ضاهر (كذا)» وطريقة عبّود وميخائيل في تدوين التاريخ سهلة الالفاظ واضحة المعاني حسنة السبك تدلّ على ضلاعتهما في الكتابة هذا مع ضعف في التعبير لاسيّما في تاريخ عبُّود الذي يشبه كلامهُ بركاكتهِ كلام العامّة . وتوفّي ميخائيل سنة ١٨١٦

---

١) اطلب ترجمة ميخائيل الصبّاغ التي اثبتناها في المشرق (٨ : ٣١—٣٣)

ولهُ بعض المآثر الشعريَّة نصفها في القسم الادبي. اما عبُّود فلا نعلم سنة ومكان وفاته

وقد عُرف في عهد الصبَّاغين المذكورين كاهن من اسرتهما كما نظنّ نضيفهُ اليهما وهو انطون صبَّاغ من تلامذة رومية يستحقّ الذكر بما عرَّبهُ من التآليف المتعدّدة البالغة نحو ٥٠ مجلّدًا منها كتاب تاريخ الكردينال اورسي في ٢٤ جلدًا كبيرًا انتهى من تعريبهِ نحو السنة ١٧٩٢ وكانت وفاتهُ في العشر الاوَّل من القرن التاسع عشر (المشرق ٩: ٦٩٥)

ومن ادباء الروم الملكيين الذين احرزوا لهم فخرًا في التاريخ نيقولا بن يوسف الترك كان اصل والدهِ من الاستانة العليَّة ثم سكن دير القمر حيث ولد ابنهُ نيقولا سنة ١٧٦٣ وفي وطنهِ سنة ١٨٢٨ . كان نيقولا محبًّا للآداب منذ حداثتهِ فلم يزل يتعاطى النظم والنثر الى ان نال فيهما نصيبًا صالحًا . وقد خدم المير بشير الشهابي زمنًا طويلًا وقصائدهُ فيهِ شهيرة نعود الى ذكرها عند وصف ديوانهِ . اما التاريخ فلهُ فيهِ مصنَّفان احدهما تاريخ الامبراطور نابوليون من سنة وفاة الملك لويس السادس عشر الى موت نابوليون ١٨٢١ في نحو ٤٥٠ صفحة كتبهُ بانصاف وحُسن ذوق مع تعريف اسباب الحوادث وعواقبها والحكم في جيّدها وسيّئها . وهذا الكتاب قد طُبع نصفهُ الاوَّل في باريس سنة ١٨٣٩ بهمَّة المسيو ديغرانج (M. Desgranges) الذي نقلهُ الى الفرنساويَّة وأَلحقهُ بعدَّة حواشٍ وهو يحتوي تاريخ نابوليون الى آخر بعثة مصر سنة ١٨٠١ . امَّا النصف الثاني فلا يزال مخطوطًا . ولنيقولا الترك تاريخ آخر ضمَّنهُ اخبار احمد باشا الجزَّار في مكتبتنا الشرقية منهُ نسخة في ١٢٦ صفحة وهو غاية في الافادة لتعريف احوال الشام من السنة ١١٨٥ هـ الى السنة ١٢٢٥ (١٧٧١—١٨١٠) وانشاء الكاتب بسيط مطبوع خالٍ من التعقيد والتعقير كما يليق بالتاريخ

والغالب على ظنّنا انَّ المعلّم نيقولا الترك هو مؤلف تاريخين آخرين لم يُذكَر اسم كاتبهما فالاوَّل هو « مجموع حوادث الحرب الواقع بين الفرنسويَّة والنساويَّة في اواخر سنة ١٨٠٥ مسيحيَّة الموافقة لها سنة ١٢٢٠ لتاريخ الهجرة » وهو تاريخ واسع في ٣٠٦ صفحة من قطع الربع طُبع في باريس سنة ١٨٠٧ وُصفت فيهِ وقائع تلك الحرب التي انتهت بانتصار نابوليون في أُسترلتس . والتاريخ الثاني من مخطوطات مكتبة باريس العموميَّة (Fonds arabe, n° 1684) اسمهُ « نزهة الزمان في حوادث لبنان » في ١٤٨ صفحة يحتوي تاريخ الامراء الشهابيين منذ اوَّل قدومهم من الحجاز الى حوران ثم

الى لبنـان مع تفصيل اخبارهم الى أيام الامير بشير الشهابي ونهايتهُ بالحوادث التي جرت سنة ١٢٠٥ (١٧٩٠)

ويلحق بهذا التاريخ تاريخ آخر لاحد الموارنة كتبهُ مؤلفهُ « انطونيوس ابن الشيخ ابي خطّار الشدياق من بيت الحاج عبد النـور من قرية عين طورين في جبّة بشرّاي باعمال طرابلس » سنة ١٨١٩ دعاهُ « مختصر تاريخ لبنان » وهو كتاب في ١٥٠ صفحة ضمّنهُ المؤلف عدّة امور تاريخيّة دينيّة ومدنيّة على غير ترتيب كما حضرتهُ او كما اقتطفها من تواريخ أُخرى او سمعها من اهل زمانهِ منها فصلٌ واسع نقلناهُ عنـهُ في المشرق (٤ : ٧٦٩ ; ٨٣٠) عن اصل الامراء والشيوخ في لبنان

وممّا كُتب في هذا العهد من الأسفار رحلةٌ لاحد الحلبيين « فتح الله ولد انطون بن الصائغ اللاتينيّ » الذي رحل في خدمة احد الاجانب اسمهُ تيودور لسكاريس في اواخر سنة ١٨١٠ من حلب الى انحاء الشام الى جهات العرب وقد وصف مـا جرى لهما من الاخبار وضمّن رحلتـهُ اشياء كثيرة عن احوال المدن التي زاراها وعن قبائل العرب وبلاد الوهابيين . وقد كتب ذلك بعبارة رائقة الّا انّها قليلة التهذيب لا تكاد تخالف لغة العامّة والكتاب يُصان في خزانة باريس (تحت الرقم ٢٢٩٨) . وقد وقف الشاعر الفرنسويّ لامرتين على هذه الرحلة فاستعان ببعض المستشرقين ونشرها مترجمة الى الافرنسيّة في كتابهِ الشهير « سفرٌ الى الشرق » (Voyage en Orient) في القسم الرابع من طبعـة باريس ١٨٣٥ (ص ٥٥—٢٨٥) . اما المؤلف فعاش بعد ذلك زمناً طويلًا وسيعود اسمهُ في مطاوي مقالتنا ثانيةً

ونختم هذا النظر في مؤرخي الثلث الاوّل من القرن التاسع عشر بذكر احد مسلمي طرابلس الغرب وهو الشيخ محمد بن عبد الكريم ولد في طرابلس الغرب وتلقّى العلوم عن اعلام عصرهِ وفحول مصرهِ وكان واسع العلم كثير الحفظ تولّى النيابة في وطنـهِ بعـد والدهِ وحسنت سيرتهُ وألّف كتاباً سمّاهُ « الارشاد بمعرفة الاجداد » ضمّنهُ ذكر اسلافهِ الكرام وكان اصل اجدادهِ من الاندلس ثمّ انتقلوا الى طرابلس وعُرفوا بآل النائب وكان ابوهُ فقيهاً شاعرًا توفي سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م) اما ابنهُ محمّد فكانت وفاتهُ سنة ١٢٣٢هـ (١٨١٧م)

الشعر والادب

انّ الشعر والادب. كما التاريخ كانت سوقهما كاسدةً في اوائل القرن التاسع عشر لم يشتهر فيهما الّا بعض الافراد في مقدَّمتهم بين المسلمين الاديب السيّد احمد بن عبد اللطيف بن احمد البربير الحسنيّ البيروتيّ وُلد سنة ١١٦٠ (١٧٤٧) في ثغر دمياط وتوفي في دمشق في ١٨ ذي الحجّة ١٢٢٦ (١٨١١) لهُ تآليف ادبيَّة ومنظومات اخصُّها مقاماتهُ التي منها نسخة خطّيَّة في المكتبة الخديويَّة (انظر قائمتها ٤ : ٣٢٨) يبتدئ اوَّلها بقولهِ «حكى بليغ هذا الزمان والعصر من حديث الذّ من سلافة العصر». وقد طُبع من هذه المقامات مقامة «المفاخرة بين الماء والهواء» في دمشق سنة ١٣٠٠ (١٨٨٣). ولهُ بديعيَّة علّق عليها شروحًا مصطفى بن عبد الوهاب بن سعيد الصلاحي تُصان بين مخطوطات برلين (ع ٧٣٨٨) ولهُ كتاب الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ وهو تأليف واسع طُبع في بيروت سنة ١٣٠٢ (١٨٨٥) اودعهُ صاحبهُ فنونًا من الآداب وفصولًا في كلّ علم من العلوم. والموصليّ المذكور هو عبد الرحمان بن ابراهيم الصوفي الموصلي من ادباء القرن الثامن عشر. امّا البيتان اللذان شرح البربير رمزهما فهذان:

ان سرَّ والمرآة يومـاً في يدي من خلقهِ ذو اللطف اسما مَنْ سما
دارت تمائلُ الزجاجِ ولم تزلْ تقفوهُ عدوًا حيثُ سار وبِمَا

اما منظومات السيّد احمد البربير فكثيرة لكنَّها متفرّقة. وكنّا قد نشرنا منها شيئًا في المشرق (٣ : ١٤—١٨) مما دار بينهُ وبين مخائيل البحريّ من المراسلات الادبيَّة. ثمَّ اتحفنا جناب الاديب عيسى افندي اسكندر معلوف بنُخبة أُخرى من اقوالهِ الشعريَّة تجدها في مجلَّتنا (٤ : ٣٩٦) ولعلَّ السيّد احمد البربير نظم ديوانًا كاملًا لكنَّنا لم نقف لهُ على اثر ومما قرأنا من لطائفهِ قولهُ في طبيب:

رأيتُ طبيباً لـهُ نفارُ يتيهُ في مشيهِ دلالا
فقلتُ من انت يا حبيبي هل راحمي انتَ قال لا لا

ولهُ في التوحيد :

لقد آمنتُ باللهِ واصبحتُ بهِ آمنْ
هو الأوّل والآخرِ م والظاهرُ والباطنْ

وقال : خرجتُ من سجن نفسي ومن حظوظي والجاه
وفي جميع اموري اسلمتُ وجهي لله

وقال في كبح الشهوات :

انَّ الذين يجاهدو نَ النفسَ شبَّانًا وشيبا
منَّ الالهُ بنصرهم وأثابهم فتحًا قريبا

وقال في تاجر سها عن الآخرة :

يا تاجرًا لا يزالُ يرجو ربحًا ويخشى من الخساره
عبادةُ الله كلَّ حينٍ خيرٌ من اللهو والتجاره

وقال يصف دار اسعد باشا وكان حاليها ابو السعود محمّد بن علي فقال يصفها :

يا دارَ اسعد باشا لكِ النعيمُ المخلّدْ بطلعة ابن عليٍّ ابي السعود محمّدْ
بدرٌ يزيد كمالًا من النجوم تولّدْ ذو همّةٍ غار منها حدُّ الحسام المجرّدْ
أما ترى السيف منها في جفنهِ بات مُغمدْ واطفهُ في البرايا مما فشا وتأكّدْ
حتّى غدا كلُّ شخصٍ بهِ يقرُّ ويشهدْ كأنهُ من نسيم القبول بات مجسّدْ
أما ترى ورد خدّ الرياض منهُ تورّدْ والبحر لمّا رآهُ يجودُ ارغى وازبدْ
والدهر بات غلامًا لمن عليهِ تردّدْ فتى بهِ ابيض حظّي من بعد ما كان اسودْ
يا سيّدي عش سعيدًا فانَّ جدّك اسعدْ وسوف ترقى لأوجٍ من الكواكب ابعدْ
فاحفظ بشارة عدلٍ بها الفراسةُ تشهدْ واسلمْ ودم في سرورٍ ما طائر الصبح غرّدْ

(لهُ بقية)

مطبوعات شرقية جديدة

THE DESERT AND THE SOWN by **Gertrude Lowthian Bell**, *London, W. Heinemann*, 1907, XVI-347

البادية والحضر

كاتبة هذه الرحلة سيدة انكليزيّة المِس بال سافرت من القدس الشريف في ربيع سنة ١٩٠٥ كما ترجح (لانهُ فاتها ان تذكر سنة السفر) فقطعت الاردن وساحت في عبرهِ الى حوران الى الصفا الى دمشق ومنها الى جهات حمص وحماة وانحاء جبل باريا حتى بلغت حلب ثم كرّت راجعة الى انطاكية مارّةً بجبل سمعان وانتهت اخيرًا الى الاسكندرونة هذه هي السياحة التي قرأنا برغبة تفاصيلها الشاملة لأشرف بلاد الشام. واغناها بالآثار التي تجعلها كتاحف عظيمة للعاديات القديمة . وليس هذا الكتاب خبر رحلةٍ فقط

لكنَّهُ ايضاً يحتوي اوصافاً اثريَّة تدلُّ على انَّ الكاتبة تُحكم معرفة الآثار وان كانت في مقدَّمتها تزعم انَّها لا تريد الخوض في الابحاث الاثرية . ولحضرتها في مطاوي الكلام عدَّة ملحوظات دقيقة تشهد على تضلُّعها من هذه المعارف . وكذلك تجد في تصاويرها دليلًا محسوساً على براعتها وحسن اختيارها وسلامة ذوقها . وكثير من هذه الصور لم يُنشر بالرسم حتى اليوم لكنَّها سهت في تسمية هيكل باخوس في بعلبك فدعتهُ مرَّتين هيكل جوبتير (ص ١٧٣ و ١٧٧) . ومما اعان السيدة بال على تدوين احوال البلاد ووصف عادات اهلها انَّها كانت تعرف العربيَّة فأمكنها حيثما حلَّت ان تخالط الوطنيين وتروي ما سمعتهُ منهم . وافضل قسم من هذه الرحلة القسم المختصّ بشمالي سوريَّة وآثارها . فانَّ الميس بال تقضي العجب من تلك البقايا الجليلة التي تحاول تعريفها وعلى رأيها انَّ السوريين لولا حوادث القرن السابع لبلغوا الى طريقة من الهندسة البنائيَّة خاصَّة بهم مستقلَّة عن غيرهم وان امتزج فيها شيء من هندسة امم أُخرى . ومما لا نوافق فيهِ حضرتها ما قالتهُ في اطراء دمشق القديمة (ص ١٣٦) وعندنا انَّ هذه المدينة لم تُمسِ عاصمةً كبيرة الَّا في عهد بني اميَّة وبهمَّتهم . وقد أَلحقت حضرة السيدة كتابها بخارطة للبلاد التي طافت فيها مع الدلالة على مسيرها بخطّ احمر . وبالختام نشكر الميس بال على هذا الاثر الجديد الذي اضافتهُ الى كتاباتها السابقة حيث اوضحت عن اقتدارها في البحث عن اصعب المسائل الشرقيَّة ه . ل

Daremberg, Saglio et Pottier : Dictionnaire des Antiquités grecques et romaines, 39e Fasc. (PISTOR-PRINCIPATUS). *Paris, Hachette,* 1906.

معجم العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة

هو القسم التاسع والثلاثون من هذا التأليف الذي أفضنا في الثناء عليهِ مرارًا عديدة يحتوي شرحاً مستوفياً على عدَّة موادَّ داخلة في الحرف P منها ما يستحقُّ ذكرًا طيّباً كمادَّة الجزاء (PŒNA) للكاتبين غلوتز ولوكريفان (G. Glotz et Ch. Lécrivain) ومادَّة الموازين (PONDERARIUM) للمسيو ميشون (E. Michon) ومادَّة الجسورة (PONS) للمسيو بسنيه (M. Besnier) والاحبار (PONTIFICES) للمسيو بوشه لوكلار (A. Bouché-Leclercq) والدواوين الجمركيَّة (PORTORIUM) للمسيو كانيا (R. Çagnat) والمرافئ (PORTUS)

لبنيه . والامارة (PRINCIPATUS) لكانيا وغير ذلك . ولا يمكنّنا ان نصف وصفاً انسب لهذا المعجم من تلخيص بعض موادهِ فلنأخذنَّ مادَّة « المرافئ » فانَّ كاتب هذه المقالة يبحث عن مواقع المرافئ وصورتها وتجهيزها وصيانتها من الانواء ومن غارات الاعداء . فيبيّن انَّ القدماء كانوا يختارون لمرابط سفنهم اخواراً بمعزل عن الانواء والرياح يسهل النفوذ اليها في كلّ فصول السنة قريبة من عيون المياه ومن الغابات لترميم ما تلف من السفن . وكانوا اذا وجدوا حوضاً طبيعياً تحيط بجهتهِ الصخور اتخذوا ذلك الحوض كمرفإ وبنوا على قرنيهِ ابراجاً لصيانتهِ . اما اذا احتاج الى اشغال لتحسينهِ وتحصينهِ وتوسيعهِ فانَّهم كانوا لا يخيمون عن العمل ولا يضنُّون بالنفقات . ثمَّ كانوا يقسمون المرفأ اقساماً وربَّما اتخذوا مرفأين في الشمال والجنوب او مرافئ متعدّدة وكان لا يفصل هذه المرافئ الَّا حاجز من الصخور فيجعلون في كلّ قسم ما يلائمهُ فيخصُّون مثلاً قسماً للمراكب الحربية وقسماً للسفن المقدَّسة المختصَّة بالمظاهر الدينيَّة وكانوا يفرزون مقاماً للدواوين وغيرها . ثمَّ يستقري الكاتب المرافئ الفينيقيَّة الشهيرة التي كانت في بحر الروم ويصف خواصّها كصور وصيداء وبيروت وطرابلس وارواد . ثمَّ ينتقل الى مرافئ اليونان كمرفإ اثينا الذي كان منقسماً الى ثلاثة اقسام وكان من اجلّ المصنوعات البشريَّة يرتقي الى القرن الرابع قبل المسيح وكمرفإ سيراقوسة ومرفإ الاسكندريَّة وكلاهما يجاري بعظمهِ مرفأ اثينة . ثمَّ ينتهي بوصف المرافئ الرومانيَّة في ايطالية ويثبت ما كان للمهندسين الرومانيين من البراعة في العمل لانَّ سواحل ايطالية كانت اقلّ استعداداً لمثل هذه المرافئ لكثرة الصخور وتراكم الارمال فلم تثبّط هذه الموانع همّة الرومان حتى اصطنعوا مرافئ تامّة المحاسن لا ينقصها شيء من اسباب الترقّي والكمال وفتحوا مرافئ على ضفاف الانهار في المدن الداخلة كما فعلوا في رومة وزبونة . وقد تشهد بقايا تلك المرافئ على حسن عمايا ومنها يستدلّ انهُ كانت شركات من البحارين مقامة في كلّ مرفإ تقوم بكل ما تحتاج اليهِ عمارة السفن وتسويتها وتفريغها الاب رينهموترد

رواية المرأة ملاك وشيطان

بقلم الاديب امين ظاهر خيرالله

طُبعت في نيويرك بمطبعة جريدة مرآة الغرب سنة ١٩٠٧

لا يسمح لنا شغلنا المتواصل بقراءة الروايات الخيالية التي قال فيها احد كبار

الاساقفة انّ احسنها لا فائدة منهُ . ولعلّ هذه الرواية تخرج عن حكم الروايات الشائعة لما نعرف في صاحبها من حُسن الذوق وتحاشي الاوصاف العشقية والسعي بنشر التعاليم الادبية . وأنّنا نوافقـهُ في قولهِ عن المرأة انّها ملاك وشيطان فينبغي على ارباب الامر وعلى المتولّين لتربيـة الاحداث لاسيما الابوَين ان لا يدّخروا وسعهم في غرس المبادئ القويمة وروح الدين في قلب الفتاة لتكون ملاكًا ويسعد بها اهلها ثمّ زوجها ثمّ اولادها ولا تكون شيطانًا فتهلك وتُهلك معها كلّ من يقربها ل . ش

ثاوطوكيون نظريّة لاهوتيّة

نظم حضرة الخوري اندراوس صوايا الرومي الكاثوليكي (١٩٠٧ ص ٩١)

للشعراء اليونان الكنسيين منذ القرن السادس للمسيح الى القرن الثالث عشر منظومات طقسيّة لا تُحصى عددًا كلها رائقة الشعر بليغة المعاني يتغنّى بها المؤمنون في محافلهم واعيادهم . وقد كثر في هذه المصنّفات نوع من التسابيح وهي المدعوّة « ثاوطوكيون » خصُّوها بذكر البتول ام الله الطاهرة والتماس شفاعتها المشفَّعة منها صنفٌ يدمجون فيـهِ مدح البتول بخلاصة الحقائق اللاهوتيّة . وقد احبَّ حضرة الاب الفاضـل الخوري اندراوس صوايا ان ينظم في العربيّة على هذا المنوال فصولًا يستفيد منها القرّاء ولاسيما من بني طائفتهِ الجليلة روح التعبُّد لسيّدة الخلائق يستقونهُ من هذه المدائح اللطيفة التي يزيدها حسنًا نظم مؤلّفها . وقد تفنّن حضرتهُ بالمعاني واستعارها في الغالب من الاسفار المقدَّسة واقوال الآباء واضاف اليهـا شيئًا من العقائد على طريقة « الثاوطوكيون الذغماتيكون » . امّا بحر هـذه القصائد فالرمل ابدًا كما انّ قافيتها اللام مطلقًا . ولعلّ البعض يجدون في وحدة الوزن والروي شيئًا من الملل فضلًا عمّا يوجب ذلك من استعمال الالفاظ الغريبة . ومن المحتمل انّ غيرهم يرون في الامر دليـلًا واضحًا على طول باع حضرة المؤلف بالشعر مع كونهِ لم يترك الغريب دون شرح وافٍ بالمرام . وها نحن نقتطف من قسمهِ الثالث ابياتًا كمثال لطريقتهِ :

مَن هَذيذي في مَعاني مريمٍ قرَّ بالي وَجَناني هلْ هلْ
كلّما غنّيتُ طابَ العيشُ لي واذا أمسكتُ ألفيني خَلْ

ومنها: إسألِ الأجدادَ سَلْ كلَّ الورى م الخافقَين والجَنوبِ والشَمَلْ
هل دَعا العذراءَ عبدٌ وَخَزي هل لها قلبٌ اليها وَانخذلْ
من نُثاتِ مائداتِ بيتِهـا قد أكلنا وشَبِعنا وَفَضَلْ

كلُّ ما سَلناهُ نلناهُ بها | بل مِرارًا نالَنا ما لم نَسَل
أحمدُ اللهَ مُنشدًا لاسمهِ | عن عَظيمٍ ما الى الشعبِ أزَل
قد عَلمنا بل أضانا نورهُ | والرَّجيمُ غمَّ والشعبُ اجتذل
إنَّ ما بينَ الإلهِ والورى | سُلَّمًا للراغبينَ والقفل
سُلَّمٌ حيٌّ عجيبٌ ناطقٌ | من ضروبِ الشرِّ للشعبِ مُبَل
مريمٌ حيثُ بها الابنُ أتى | وعَليها الرُّوحُ بالمجدِ أظَل
وعليهِ إن وجلتَ يا تقي | قُل سَريعًا مريمٌ بُضّ الوجل

شذرات

موشّح في مدح العذراء ارسل لنا جناب الشيخ يوسف ابي سليمان موشحًا دعاهُ « سيّدة لبنان ام الرحمان » في نسبة الشهر المريمي فلم يمكنّا ان نثبت منهُ غير الادوار الآتية لتأخر ورودهِ :

قامت العذراء في أوج السما | بوشاحٍ من رقيق السُّندسِ
حولها الحراس تحكي الأنجُما | انها مَلكة تلك الأنفسِ

دورٌ

اسمعوا قولَ سليمانَ الحكيم | حازني الربُّ ببادي طرقهِ
ومُسحتُ قبلَ كلٍّ من قدمٍ | ذا كلامٌ لا رنا في نُطقهِ
وجُعلتُ في حمى ربٍّ عظيم | وكأني حامةً من حقّهِ
حينما للبحرِ حدَّ الأرسما | وبنى للأرض رسمَ الأسسِ
كُنتُ معهُ بمكانٍ قد سما | وهو لي أحلى وأشهى مؤنسِ

الى ان قال :

أرزةٌ لبنانَ زانت من قِدَمْ | اصلُها من بيت داود الأصيلْ
هيكلٌ ضمّت اقانيمَ الحكَمْ | فسليمانُ لها الفرعُ النبيلْ
جنّةٌ فاضت بأزهار النِعَمْ | ما لها بين البرايا من مثيلْ
توّجت لبنان تاجًا افخما | وشّحتهُ بوشاح الأطلسِ
فيها الأبكارُ باتت هُيَّما | زاهياتٍ بالقدودِ المُيَّسِ

(زهرةٌ صغيرة)

ضاءت العذراء في أوج السما | برداءٍ من نضير السُّندُسِ
حولها الأطهارُ تحكي الانجما | انها مَلكة تلك الانفسِ

وقال في الختام :

يا بني الايمان انتم في امان … أُمكم امُّ الاله الصَّمَدِ
امكم مالكةٌ وسط الجنانْ … رَوحها راحٌ لدفع الكَمدِ
امكم مَن أَنها يُرجى مُصانْ … وجا بجيا حياةَ الأبدِ
فتعالـوا طالبينَ النِّعَما … من سحابٍ عارضٍ منبجسِ
فتنالوا من نداها الدِّيَما … انما تضحي على الملتمسِ

(زهرةٌ صغيرة)

طابت العذراء قلبًا وفمًا … وهي نـورُ الـمدِ للمقتبسِ
فهلموا نحوَها تُرووا الظما … وتعالَوا برياضِ المَقدِسِ

حال الكتابة العربيَّة في الاسلام — من الفصول المفيدة التي اطّلعنا عليها في احد الكتب المخطوطة العزيزة الوجود التي لقيناها في مدينة ستراسبورغ فصلٌ نقلناهُ من الجزء الثاني من كتاب « الخبر عن البشر » تأليف الشيخ الامام المقريزي جمع فيهِ الكاتب الجليل فوائد عن حالة الكتابة عند العرب في اوَّل الاسلام فنوردهُ هنا تتمَّة لفصول الكتابة التي نشرناها سابقًا عن القلقشندي: « انَّ كنانة كانت ايام الجاهليَّة بمكَّة كما تقدَّم فلمَّا هاجر رسول الله من مكَّة الى المدينة كان اوَّل من علَّم بها الكتابة من المسلمين عبدالله بن سعيد بن العاصي بن اميَّة امرهُ رسول الله ان يعلّم الكتاب بالمدينة وكان كاتبًا محسنًا ولم يكن احد من الانصار يحسن الكتابة (١). ثمَّ كان ممَّن أُسر ببدر ولا مال لهُ فقبل منهُ ان يعلّم عشرة من غلمان الانصار الكتابة ويُخلّي لسبيلهِ فيومئذٍ تعلّم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الانصار وكانت الشفاء ام سليمان بن ابي حثمة تكتب ففي سنن ابي داود انَّ النبي صلعم دخل على حفصة والشفاء عندها فقال: أَلا تعلّمين حفصة رقية النملة كما علّمتها الكتابة. وكان اوَّل الخطوط العربيَّة الخطَّ المكي وبعدهُ الخط المدني ثمَّ الخطَّ البصري ثمَّ الخط الكوفي فامَّا الخط المكي فكان في أَلِفاتهِ تعويج الى يمنة اليد واعلى الاصابع وفي شكلهِ انضجاع يسير واوَّل من كتب المصاحف في الصدر الاوَّل ووُصف بحسن الخطّ خالد بن ابي الهياج وكان حسنه (؟) يكتب المصاحف والشعر والاخبار للوليد بن عبد الملك بن مروان وكان مالك بن دينار ابو يحيى مولى اسامة بن لؤي يكتب المصاحف باجرة ومات سنة ١٣٠ وكان حشنام البصري ومهديّ الكوفي (؟) في ايام الرشيد لم يُرَ مثلهما فانَّ حشنام

(١) لا يوافق ابن سعد هذا القول في طبقاته ج ٣ ص ٩١ ; ١٣٦ ; ١٤٢ الخ

كانت ألفاتهُ ذراعاً شقّاً بالقلم وكان ابو حري (؟) يكتب المصاحف في أيام المعتصم وهو من كبار الكوفيين وحذّاقهم وقيل اول من كتب في أيام بني اميّة قطبة وهو الذي استخرج الاقلام الاربعة واشتقّ بعضها من بعض وكان اكتب الناس بالعربيّة ثمّ كان بعدهُ الضحّاك بن عجلان الكاتب في اوّل خلافة بني العباس فزاد على قطبة وكان اكتب الخلق وانتهت اليهِ جودة الخطّ الجليل ثمّ كان بعدهُ اسحاق بن حمّاد الكاتب في خلافة ابي جعفر المنصور وابنهُ محمّد المهدي فزاد على الضحّاك وكان لهُ عدّة تلامذة من الكتّاب يوسف الكاتب الملقب لقوة الشاعر كان اكتب الناس ومنهم ابرهيم بن المجشر زاد على يوسف لقوة وكان قد اخذ عن اسحاق بن حمّاد قلم الجليل واخترع منهُ اخف حركات واحسن مزاوجات وسمّاهُ قلم الثلثين ثمّ اخترع من قلم الثلثين ما هو اخفّ منهُ وسمّاهُ قلم الثلث . . . والاقلام الموزونة قلم الجليل وهو ابو الاقلام كلها لا يقوى عليهِ احد الّا بالتعليم الشديد . . . ويُكتب عن الخلفاء الى ملوك الارض في الطوامير الصحاح ويخرج من قلم الجليل قلمان هما قلم السجلّات وقلم الديباج . . . وكانت العرب تكتب في اكتاف الابل والحجارة الرقيقة البيض وفي عسيب النخل . ثمّ حدث في أيام بني اميّة ورق عُمل من الكتان عرف بالورق الخراسان بعد ما كانت الكتابة في الادم والرقوق وقيل بل عُمل الورق في أيام بني العبّاس وقيل بل هو قديم واقام الناس ببغداد سنتين لا يكتبون الّا في الطروس لانّ الدواوين نُهبت في أيام الامين وكانت في جلود فكانت تُمحص ويُكتب فيها . . . واعلم انّ معنى قول الكتابة قلم النصف والثلث والثلثين انّما هو راجع الى الاصل . وذلك لانّ الخطّ جنسين من الاربع عشرة طريقة التي للاصول احدهما قلم الطومار وهو قلم مبسوط كلهُ ليس فيهِ شيء مستدير وكثير ما كتب فيهِ المصاحف المدنيّة في القدم . وقلم آخر يسمّى عبار الحلية وهو قلم مستدير كلهُ ليس فيهِ مستقيم فالاقلام كلّها تؤخذ من المستقيم والمستدير فما كان فيهِ من الخطوط المستقيمة ما يوازي ما فيهِ من الخطوط المستديرة سُمّي قلم النصف . فان كان الذي فيهِ من الخطوط المستقيمة الثلث سُمّي قلم الثلث وان كان من الخطوط الثلثان سُمّي قلم الثلثين وعلى هذا تتركّب هذه الاقلام

أسئلة واجوبة

س سأل من حيفا حضرة الخوري يوسف المارونيّ أصحيح ما جاء في مجلّة صديق الاكليروس (L'Ami du Clergé, 21 *Mars*, 1907, p. 207) ان الخمر المطبوخ لا يصلح كمادّة التقديس على المرجّح « (le vin cuit étant très probablement matière invalide) وهل النبيذ الذي يُصنع في لبنان ويغلى قليلًا على النار يصلح للتقديس

الخمر المطبوخ كمادّة التقديس

ج انّ الخمر المتّخذة عادةً للتقديس هي عصير العنب بعد اختماره وروقه . وفي بعض البلاد يغلون العصير قليلًا على النار قبل اختماره ليمنعوا بذلك تحلّله ويزيدوه حلاوةً فيتبخّر شيء من مائيّته . وليس من قائل بأنّ هذه الخمر لا تصلح كمادّة التقديس واكثر خمر لبنان على هذه الصفة . وجواب المجلّة الافرنسيّة بهذا المعنى ليس بصواب كما يتّضح بحكم المجمع المقدّس في جوابه على سؤال اسقف طرّاكونة في ٥ آب ١٨٩٦ (Analecta ecclesiastica, 1896, p. 483-4) . وانّما المبالغة في طبخ الخمر تفقدها بعض خواصّها فتنعقد وتصير كالدبس ومثل هذه الخمرة لا يجوز استعمالها في التقديس . وفيها يصحّ جواب المجلّة

س سألنا من مالطة حضرة الخوري جرجس السبلاني ان نعرّفهُ بكتب تواريخ امراء المغرب والاندلس ومصر من العرب سواء كان من المؤرخين الذين كتبوا بالعربيّة او بلغة اوربيّة

تواريخ المغرب والاندلس ومصر

ج الجواب على هذا يقتضي مئات من الصفحات . والاجدر بنا ان نحيل حضرتهُ الى مراجعة الفهارس المتعدّدة التي نُشرت ولا تزال تُنشر كلّ سنة في مكاتب ليبسيك وغيرها . ومن الكتب التي توقفهُ على مطلوبهِ الكتاب الآتي :

Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie par Jean Gay, *Paris*, *Maisonneuve*, 1875

وكذلك يجد حضرتهُ في قوائم المخطوطات العربية المصونة في عواصم اوربّة عددًا عديدًا من التآليف في تاريخ البلاد المنوّه بها . وفي احد اعداد المشرق السابقة (ص ٢٣٥) ذكرنا كرّاسًا يحتوي جدول ١٥٣ كتابًا في تاريخ الاندلس والمغرب فليُراجع

ل . ش